شعر حافظ إبراهيم الاجتماعي

وآراء النقاد فيه

إعداد الدكتور

محمد محمد محمد جمعة نوارج

مدرس الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

جامعة الأزهر – مصر

شعر حافظ إبراهيم الاجتماعي
وآراء النقاد فيه

محمد محمد محمد جمعة نوارج.
قسم الأدب والنقد، كلية: الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد، جامعة: الأزهر الشريف، مصر .
البريد الإلكتروني: mm526923@gmail.com

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث الجانب الاجتماعي في شعر حافظ إبراهيم، ذلك الشاعر الاجتماعي الإنساني الكبير، الذي برز بين شعراء العصر الحديث بشعره الاجتماعي، وتفوق عليهم جميعاً، وكان شعره في هذا الجانب صورة صادقة لواقع المجتمع في عصره، وما يموج به من أمراض وعلل، وما يتقلب فيه بعض المصريين من بؤس وحرمان وشقاء في ظل الاستعمار الإنجليزي، الذي استولى على خيرات مصر، وانتفع بها هو وأعوانه فقط، وحرموا الشعب حتى من ضروريات الحياة، فكان شاعر الشعب، وكان أيضا الشاعر الاجتماعي، الــذي نوه النقاد بفضله وجهوده في المجال الاجتماعي.

وقد تناول البحث دراسة موضوعية لاجتماعيات حافظ، تكشف عن القضايا والموضوعات والمشكلات الاجتماعية التي عرض لها حافظ في شعره.

وفيه تم الوقوف على أبرز الظواهر المضمونية والفنية، التي انطوى عليها شعره في الجانب الاجتماعي، ووضحت فيه إلى حد كبير، مع الاستشهاد عليها، بما يدعمها ويؤكدها من شعره الاجتماعي.

كما تناول الحديث عن آراء بعض النقاد في حافظ إبراهيم، وشعره في الجانب الاجتماعي، مع مناقشة تلك الآراء، والتعقيب عليها، وهي آراء تكشف – في جملتها – عن تقدير النقاد لشعر حافظ إبراهيم الاجتماعي، وتميزه بين الشعراء

بهذا الجانب، واعترافهم بجودة شعره الاجتماعي، كما تشير في ثناياها إلى بعض المآخذ عليه في هذا الجانب الشعري.

الكلمات المفتاحية: شعر حافظ ابراهيم ، الجانب الاجتماعي ، الدراسة الموضوعية ، أبرز الظواهر المضمونية والفنية ، آراء بعض النقاد في شعر حافظ الاجتماعي.

Hafez Ibrahim's social poetry
And the opinions of critics about it

Mohamed Mohamed Mohamed Nouareg.
Department of literature and criticism, Faculty of Islamic and Arabic studies Port Said girls, Al-Azhar university,.
E-mail: mm٥٢٦٩٢٣@gmail.com

Abstract:

In this research, I deal with the social aspect of the poetry of Hafez Ibrahim, that great humanistic social poet, who stood out among the poets of the modern era with his social poetry, and surpassed them all, and his poetry in this aspect was a true example of the reality of society in his time, and the diseases and ills that rippled through it, And what some Egyptians are experiencing of misery, deprivation and misery under the English colonialism, which seized the goods of Egypt, and benefited only him and his helpers, They deprived the people even of the necessities of life, so he was the people's poet, and he was also the social poet, Critics praised him for his efforts in the social field.

The research dealt with an objective study of Hafez's sociology, revealing the issues, topics and social problems that Hafez presented in his poetry.

In it, the most prominent substantive and artistic phenomena involved in his poetry in the social aspect were identified, and they were explained to a large extent, with citations to them, supported and confirmed by his social poetry.

He also discussed the opinions of some critics about Hafez Ibrahim and his poetry in the social aspect, discussing those

opinions and commenting on them, which reveal – in their entirety – the appreciation of critics for Hafez Ibrahim's social poetry, It distinguishes him among poets in this aspect, and their recognition of the quality of his social poetry, and also indicates in its folds some shortcomings in this poetic aspect.

Keywords: Hafez Ibrahim's poetry-the social aspect-the objective study-the most prominent substantive and artistic phenomena-the opinions of some critics in Hafez's social poetry.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد.

فهذا بحث أتناول فيه الجانب الاجتماعي في شعر حافظ إبراهيم، ذلك الشاعر الاجتماعي الإنساني الكبير، الذي برز بين شعراء العصر الحديث بشعره الاجتماعي، وتفوق عليهم جميعاً، وكان شعره في هذا الجانب صورة صادقة لواقع المجتمع في عصره، وما يموج به من أمراض وعلل، وما يتقلب فيه بعض المصريين من بؤس وحرمان وشقاء في ظل الاستعمار الإنجليزي، الذي استولى على خيرات مصر، وانتفع بها هو وأعوانه فقط، وحرموا الشعب حتى من ضروريات الحياة، وكان حافظ واحدا من هذا الشعب، فقد نشأ نشأة شعبية ، وعاني في حياته كثيرا، وأحس بالبؤس والحرمان طيلة حياته؛ ولهذا كان قريبا من الشعب، يتألم بألمه، ويحس بإحساسه، ويعايش قضاياه ومشكلاته الاجتماعية، ويحاول أن يعالجها، ويقضى على السلبيات الاجتماعية بشعره، فكان شاعر الشعب، وكان أيضا الشاعر الاجتماعي، الذي نوه النقاد بفضله وجهوده في المجال الاجتماعي.

وحيث إن الجانب الاجتماعي قد برز في شعر حافظ وحيث تبوأ حافظ مكانا عاليا بين شعراء العصر الحديث في هذا الجانب، وحيث كان هو شاعر الشعب الذي صور حياته ومعاناته وكل ما واجهه من علل وأمراض اجتماعية، وحيث كان أيضا الشاعر الاجتماعي الذي اهتم بالإصلاح الاجتماعي في شعره، ودعا إليه، وحيث حققت قصائده الاجتماعية كثيرا من الإصلاحات، وجمعت كثيرا من الأموال من أجل رعاية الأطفال والأيتام، والوقوف بجانب المنكوبين والفقراء، وحيث أجاد – كما ذهب النقاد– في شعره الاجتماعي شكلا

ومضمونا، لذلك كله رأيت أن أتناول هذا الموضوع في شعره بالدراسة والتحليل في هذا البحث الذي بين أيدينا.

وفيه العناصر التالية:

المقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع، والدافع إلى اختياره ودراسته، ثم بينت الخطة التي سرت عليها فـــي البحث.

المبحث الأول: يتناول دراسة موضوعية لاجتماعيات حافظ، تكشف عن القضايا والموضوعات والمشكلات الاجتماعية التي عرض لها حافظ في شعره، وهي كثيرة نذكر منها: الوضع الاجتماعي العام القائم في عصر حافظ، وما يموج به من إيجابيات ومن علل وأمراض وسلبيات، ومحاولة القضاء عليها وعلاجها؛ من أجل النهوض بالمجتمع ومحاولة الرقي بالشعب المصري، ومنها: الدعوة إلى أعمال الخير والبر، بإقامة الملاجئ، وإنشاء الجمعيات الخيرية لرعاية الفقراء والأيتام، ومعاونة المنكوبين، ومنها: الحرص على نهضة التعليم في مصر، والدعوة إلى إنشاء المدارس، وإنشاء الجامعة المصرية، والمشاركة في الاحتفالات التي تقيمها بعض المدارس احتفاءً بخريجيها وخريجاتها، ومنها: تناول الفتنة الطائفية التي ظهرت في عصر حافظ بين المسلمين والأقباط، ومحاولة القضاء على الصراع بينهما في مهده، قبل أن يتفاقم، ويحدث ما لا يحمد عقباه، وكان حافظ ماهراً ذكياً في معالجة تلك الفتنة في شعره، ومنها: بعض الدعابات الاجتماعية الساخرة التي كان يداعب بها أصحابه بين الحين والآخر، هادفًا من ورائها إلى القضاء على بعض السلبيات الاجتماعية، ومنها: تناول الكوارث الطبيعية والبيئية التي تتعرض لها الإنسانية في أي مكان، وتصوير نتائجها وأضرارها، والدعوة إلى إغاثة المنكوبين بسببها والوقوف بجانبهم، وغير ذلك من القضايا والمشكلات والمظاهر التي عرض لها في اجتماعياته، إلى جانب ما قد يعرض له أحياناً مما في المجتمع وأفراده من محامد ومحاسن، وما قد يجسده في اجتماعياته كذلك من

آمال وتطلعات الشعب المصري، إلى حياة كريمة، ينعم في ظلها بالرخاء والاستقرار الاجتماعي، والعيش الرغيد الكريم.

المبحث الثاني: وفيه تم الوقوف على أبرز الظواهر المضمونية والفنية، التي انطوى عليها شعر حافظ إبراهيم في الجانب الاجتماعي، ووضحت فيه إلى حد كبير، ودراستها، وبيان سماتها وملامحها، وموقعها في اجتماعيات حافظ إبراهيم، مع الاستشهاد عليها، بما يدعمها ويؤكدها من شعر حافظ إبراهيم الاجتماعي.

وتتمثل تلك الظواهر في: صدق العاطفة وقوتها وسموها، ووضوح النزعة الإنسانية العالمية في اجتماعياته، واستلهام أحداث التاريخ وشخصياته، وتعدد الموضوعات والقضايا الاجتماعية، والتكرار المعنوي، والوضوح والقرب من الأفهام شكلًا ومضمونًا، والتصوير الحي المؤثر، والموسيقية الجميلة المثيرة.

المبحث الثالث: تناول الحديث عن آراء بعض النقاد في حافظ إبراهيم، وشعره في الجانب الاجتماعي، مع مناقشة تلك الآراء، والتعقيب عليها، وهي آراء تكشف – في جملتها – عن تقدير النقاد لشعر حافظ إبراهيم الاجتماعي، وتميزه بين الشعراء بهذا الجانب، واعترافهم بجودة شعره الاجتماعي، كما تشير في ثناياها إلى بعض المآخذ عليه في هذا الجانب الشعري.

الخاتمة: وفيها موجز للبحث، وثبت بنتائج دراسة موضوعه.

وأرجو – بعد ذلك – أن يكون التوفيق قد حالف البحث وصاحبه، وأن يكون البحث قد كشف عن موضوعه بوضوح، وحدد مكانة حافظ إبراهيم في الشعر الاجتماعي، ودوره في الإصلاح الاجتماعي بشعره في هذا الجانب.

والله الموفق

المبحث الأول

الجانب الموضوعي في شعر حافظ[١] الاجتماعي

شهد حافظ هذا الوضع السياسي، في عصره بكل مظاهره ومشكلاته وصراعاته، وما صحبه من وضع اجتماعي يتخبط في ظلمات الجهل والفقر والمرض والبؤس والشقاء.

وشهد ما وقع في عصره من أحداث كبرى، من مثل وجود الإمام محمد عبده، ودعوته إلى الإصلاح الديني والاجتماعي مع رفاقه، وحادثة دنشواي وتعسف الإنجليز فيها، والنهضة الصحافية وأعلامها وصحفها، والصراع بين المسلمين والأقباط ومحاولة المستعمرين تأجيج نار هذا الصراع، ورحيل اللورد (كرومر) بمآسيه الدامية عن مصر، والحرب العالمية الأولى، وثورة ١٩١٩م ودور المرأة المصرية فيها، وتصريح ٢٨ فبراير سنه ١٩٢٢ م.

وغير ذلك من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية في عصره، وما فيها من سلبيات وإيجابيات، وتفاعل مع ذلك كله تفاعلاً إيجابيا قويا.

كل ذلك كان له أثره في شعره، ومن يطالع ديوانه سيقف على تلك الأحداث، وغيرها من مظاهر الوضع الاجتماعي التي سنشير إليها في هذا البحث، مسطرة في أبياته الشعرية، وسيجد حافظ ابراهيم فيها وطنيا غيورا على وطنه وأمته وشعبه تارة، ومتخاذلا ضعيفا تبدو عليه روح الاستسلام تارة أخرى، وسيجده كذلك مصلحا اجتماعيا من الطراز الأول، يتبوأ الذروة بين شعراء عصره بشعره

(١) هو محمد حافظ إبراهيم، ولد في ٤ فبراير ١٨٧٢م، وتوفي في ٢١ يوليو ١٩٣٢م، اختلط في حياته بأوساط مختلفة من الشعب، ومن رجال الطبقة الوسطى، من أهل التنوير والتثقيف والنهضة الحديثة، وبدأ نبوغه الشعري مبكرًا، وأحاط بالوضع الاجتماعي وقضاياه ومشكلاته ومظاهره المختلفة، وتناول ذلك كله في إبداعات شعرية رائعة، حتى عرف بشاعر الشعب، والشاعر الاجتماعي، وكان أحد الشعراء المحافظين الكبار المجيدين في شعرهم، وله ديوان شعري كبير ورائع، ويحتل الجانب الاجتماعي مساحة كبيرة فيه.
ينظر: حافظ إبراهيم شاعر النيل. د. عبد الحميد سند الجندي، ص ١٥-٤٧ بتصرف. دراسات في الشعر العربي المعاصر. د. شوقي ضيف ص ٩-١٣ بتصرف.

الاجتماعي، الذي تفاعل به مع الناس في ظل الوضع الاجتماعي الذي عاشه وعايشه، بكل مظاهره وسلبياته وعلله وأمراضه.

ومن كل ذلك يتبين لنا أن حافظ إبراهيم كان شاعرا انفعل بعصره، وانصهر في بوتقته، وحمل شعره روح العصر ومظاهر الحياة فيه، بكل قساوتها ومرارتها وآلامها وآمالها، وصور هموم الأمة وآلامها وآمالها وواقعها أصدق تصوير.

وسوف يبرز البحث في شعره الاجتماعي الذي نقدمه هذا جانبا من ذلك ويؤكده.

أولاً: الواقع الاجتماعي ومظاهره المختلفة.

عرف عن حافظ إبراهيم أنه شاعر الشعب، حيث كان قريبا من الشعب المصري في حياته وتعاملاته وعلاقاته، كما كان قريبا منه في أزماته ومعاناته، يحس بآلامه، ويتطلع تطلعاته، ويأمل آماله، ويطمح إلى وضع اجتماعي يرقى بالشعب، ويرتفع به فوق آلامه وعذاباته ويحقق له آماله، ولهذا ليس غريبا أن يعرف حافظ ابراهيم بأنه شاعر الشعب، وأنه الشاعر الاجتماعي، فقد تناول في شعره كثيرا من المتناقضات والنقائص الاجتماعية، وشارك بشعره في كثير من المناسبات والأحداث الاجتماعية، كما تألم كثيرا بسبب ما شاهد مما عليه مجتمعه من وضع سيئ في ظل الاستعمار وأعوانه، فراح بشعره الاجتماعي الصادق الرقيق يخفف من حدة هذا الوضع المتردي، وشدة وقعه على نفوس الشعب، ويدلى فيه بدلوه في الإصلاح الاجتماعي، الذي تزعمه آنذاك الإمام محمد عبده وزملاؤه في ذلك الإصلاح.

كان حافظ ابراهيم شاعرا اجتماعيا بعلاقاته وشعره، قريبا من روح الشعر الصادق والمؤثر، لإيمانه بأن الشاعر يجب أن يتفاعل مع أحداث مجتمعه، ومظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية في عصره؛ حتى لا يعزل نفسه في برج عاج، إذ

الشعر ينبغي أن يكون – في جانب كبير منه – مرآة للحياة والبيئة والعصر، يصور مظاهرها، ويتأثر بها، ويؤثر فيها، ويبدو أن حافظ ابراهيم قد وعى ذلك تماما فغمر ديوانه بالكثير من الأوضاع والمظاهر والأحداث الاجتماعية، التي سادت في عصره، والتي عايشها وتفاعل معها، وأحس بوطأة الشعب في ظلها.

وقد تجمعت عوامل عدة جعلت من حافظ ابراهيم شاعر الشعب، وشاعر المجتمع، والشاعر الاجتماعي، وساعدت على أن يتسع ديوانه للكثير من المظاهر والأوضاع الاجتماعية التي سادت في عصره.

فنشأة حافظ ابراهيم المتواضعة بين أسرة متواضعة وقربه من الشعب، ومعاناته في حياته، ومعاناة شعبه فـــي ظل الأوضاع الاجتماعية المتردية، وإحساسه القوى بتلك المعاناة الشعبية، وكراهيته للإنجليز؛ لإحساسه بأن سوء الوضع الاجتماعي كان نتيجة لاحتلالهم مصر، وتسخير طاقاته الشعرية لخدمة بلاده ووطنه وقضاياه، وإيمانه برسالة الشعر الاجتماعية كفرد من أفراد مدرسة البعث، التي أخذت على عاتقها تناول الأحداث والقضايا القومية والسياسية والاجتماعية، كل أولئك ساعد على أن يكون حافظ ابراهيم شاعر الشعب، والشاعر الاجتماعي، والشاعر الأول من بين شعراء البعث والإحياء الذي وظف شعره وطاقاته الفنية لخدمة قضايا وطنه وأمته، وفي مقدمتها القضايا الاجتماعية.

ومن أجل ذلك كله اندفع حافظ ابراهيم في كل مناسبة اجتماعية ليشارك الشعب بشعره، كما اندفع ليشارك بشعره في كل مأساة اجتماعية تمر بالشعب ويواسى أصحابها، ويحمل عنهم همومهم، فنجده " يصور علل الشعب الاجتماعية، وما تتجرعه طبقاته الدنيا صابرة من الفقر والبؤس، ويجلى حافظ في هذا الميدان، بحيث يصبح صوت الشعب الناطق باسمه في مطالبه، فكلما ابتغى حاجة بادر إلى طلبها، سواء من ذلك ما اتصل بدور العلم أو بإنشاء الملاجئ والجمعيات

الخيرية[1]"، أو غيرها من المناسبات والمظاهر الاجتماعية، التي يزخر بها شعره الاجتماعي، وسنحاول هنا في هذا العنصر من البحث أن نلم بتلك المظاهر والمناسبات الاجتماعية، التي شارك فيها حافظ بشعره في دراسة موضوعية تكشف عن موضوعاتها ومضامينها.

١- من الظواهر الاجتماعية العامة السلبية والإيجابية.

كان الواقع الاجتماعي في عصر حافظ ابراهيم يزخر بالكثير من القضايا والمشكلات والمظاهر الإيجابية والسلبية، في ظل الإستعمار وأعوانه، وكانت تدفع الشعراء إلى تناولها والخوض فيها، مستشعرين آلام المجتمع ومشكلاته، وما يعانيه أفراده في ظل هذا الوضع الاجتماعي المتردي في ظلمات الفقر، والجهل، والمرض، والطبقية، والإقطاع، وغلاء الأسعار، والصراع الشديد بين عادات وتقاليد بالية وعادات وتقاليد أخرى جديدة، أو وافدة من الغرب.

وكل أولئك تناوله الشعراء، وصوروا هذا الوضع الاجتماعي المتردي في صور متعددة، وكان كثير من هؤلاء الشعراء قريبا من واقع المجتمع، يعايشه وينفعل به ويحس ما يحس به أفراد الشعب من ضنك وبؤس في شتى مظاهرهما.

ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء شاعرنا حافظ ابراهيم، الذي " كان أكثر تفاعلا مع روح عصره وأمته؛ لأنه لم يكن أرستقراطى النشأة مثل الباردوي وشوقي، فاندمج من أول الأمر في الشعب [2]".

وتردد شعر حافظ في تصوير مظاهر ذلك الواقع الاجتماعي، ما بين تناول بعض السلبيات والمساوئ والتنبيه عليهما والتحذير منهما، والقدح والذم لأصحابها

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصر. د. شوقي ضيف ص ٢٠٩.
(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٤٧.

أو القائمين بها، أو المشاركين فيها، وتناول بعض المظاهر الاجتماعية الإيجابية والتنويه بها والثناء على أصحابها أو القائمين بها.

- فمن العيوب الاجتماعية التي تناولها حافظ في شعره، والتي كانت متفشية في كثير من المصريين آنذاك، التخاذل والتكاسل عن العمل والسعي، فالأحداث تتوالى، والعيش يزداد مرارة، والمصريون في غفلة ولهو ولعب، وتركوا الأجانب في مصر يصيبون حظا من الثروة لم يصبه أهلها، لأنهم دائما يتميزون بالجد في السعي، والدأب في العمل أما المصريون فنيام لا يفيقون، وليس لديهم حرص على العمل، لأنهم ألفوا الخمول، واستكانوا إليه (١):

أمــــور تمــر وعــيش يمــر ... ونحن من اللهــو فــي ملعــب
وشعب يفــر مــن الصــالحات ... فــرار الســليم مــن الأجــرب
وقـــالوا دخيـــل عليـــه العفـــاء ... ونعـــم الـــدخيل علـــى مـــذهبي
رآنـــا نيامـــا ولمـــا نفـــق ... فشـــمر للســـعي والمكســـب
ومـــاذا عليـــه إذا فاتنـــا ... ونحن على العــيش لــم نــدأب
ألفنـــا الخمـــول وياليتنـــا ... ألفنـــا الخمـــول ولـــم نكـــذب

– وكثيرون هم الفقراء والأيتام في المجتمع المصري آنذاك، الذين جار عليهم الاستعمار وأعوانه، والنظام الطبقي في المجتمع، وكانوا يعانون البؤس والحرمان وشظف العيش، وليس غريبا أن يصور شاعرنا حال هؤلاء، فهو واحد منهم، وكم أحس في حياته مثلهم بالحرمان والشقاء.

(١) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٥٧، ٢٥٨.

وهذه صورة من الصور التي رسمها لهم، فهم، بائسون، سيئو الأحوال، يتضورون جوعا، وعراة، ومرضى وفقراء، ونفوسهم مروعة، لا يدرون كيف يحمون أنفسهم من البرد أو من الحر [1]:

لله درهم فكم من بائس جم الوجيعة سيء الأحوال
ترمى به الدنيا فمن جوع إلــى عرى إلى سقم إلى إقلال
عين مسهدة وقلب واجف نفس مروعة وجيب خالي
لم يدر ناظره أعريانا يــرى أم كاسيا في تكلم الأسمال
فكأن ناحل جسمه في ثوبه خلف الخروق يطل من غربال
يا برد فاحمل قد ظفرت بأعزل يا حر تلك فريسة المغتال
يا عين مسحي يا قلوب تقطري يا نفس رقى يا مروءة والى

وأمام موجة الفقر والبؤس التي شاعت في المجتمع آنذاك، راح حافظ ابراهيم يذكر بفريضة الزكاة، ويحث على إخراجها، لإنقاذ البؤساء والمحرومين، الذين يحس بمعاناتهم لأنه واحد منهم، وكم عانى مثلهم في حياته من البؤس والشقاء، فاتخذ من شعره سلاحا للدعوة إلى الوقوف بجانب البؤساء، والمحرومين، والقضاء على كل مظاهر البؤس في المجتمع [2]:

وعلمنا أن الزكاة سبيل اللــ ـــه قبل الصلاة قبل الصيام
خصها الله في الكتاب بذكر فهي ركن الأركان في الإسلام
بدأت مبدأ اليقين وظلت لحياة الشعوب خير قوام

(١) السابق ص ٢٧٨.
(٢) .. السابق ص ٢٨٧،٢٨٨.

لو وفي بالزكاة من جمع الدنـــ ـــيا وأقوى على اقتناء الحطام
ما شكا الجوع معدم أو تصدى لركوب الـــشرور والآثام
راكبا رأسه طريدا شريدا لا يبالي بشرعة أو ذمام
سائلا عن وصية الله فيه آخذا قوته بحد الحسام
لم أقف موقفي لأنشد شعرا صب في قالب بديع النظام
إنما قمت فيه والنفس نشوى من كؤوس الهموم والقلب دامي
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشا دون شربي قذاه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زمانا وتنقلب في الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقبا في فؤادي ومشى الحزن ناخرا في عظامي
فلهذا وقفت أستعطف النا س على البائسين في كل عام

-ولحافظ ابراهيم قصيدة بعنوان: غلاء الأسعار [١]، يصور فيها ما وصل إليه الشعب من بؤس وضيق، وما حاق بالبلاد من جراء الغلاء.

بدأ حافظ تلك القصيدة بمخاطبة المصلحين، حيث يبين لهم أن العيش قد ضاق بالناس، وهم لم يحسنوا القيام على هذا العيش، كي ينقذوا الناس من الغلاء والحرمان، فقد عزت السلعة الذليلة، وأصبح لها شأن وثمن، فارتفع ثمنها فوق مستوى الشعب، الذي أصبح لا يملك قوت يومه، حتى غدا القوت في يده كالياقوت، فما كان من الفقير إلا أن نوى الصيام، لأنه أصبح في حال يتمنى معه أن يشم ريح الشواء، وإن أصاب الرغيف بعد كد وعناء، أصبح من الصعب عليه الحصول على ما يؤدم به ذلك الرغيف:

أيها المصلحون ضاق بنـــا العيـــ ـــش ولم تحســـنوا عليـــه القيامـــا

(١) السابق ص ٣١٦، ٣١٧

عـــزت الســـلعة الذليلـــة حتـــى ... بات مسح الحـــذاء خطبـــا جســـاما
وغدا القوت في يـــد النـــاس كاليـــا ... قوت حتى نـــوى الفقيـــر الصـــياما
يقطـــع اليـــوم طاويـــا ولديـــه ... دون ريح القتـــار ريـــح الخزامـــى
ويخال الرغيف في البعـــد بـــدرا ... ويظـــن اللحـــوم صـــيدا حرامـــا
إن أصاب الرغيف مـــن بعـــد كـــد ... صاح من لي بأن أصـــيب الإدامـــا

ثم يطلب إلى المصلحين كذلك أن يصلحوا النفوس التي أضربها الفقر، وبرغم ذلك فهي مرتبطة بمصر والنيل، ولا تنوى الرحيل عنهما مهما حدث لها، فهي تؤثر الموت جوعا في ربا النيل، على الرحيل، الذي يمثل عارا بالنسبة لها:

أيها المصلحون أصلحتم الأر ... ض وبتم عن النفوس نياما
أنفسنا أضر بها الفقـــ ... ـــر وأحيا بموتها الآثاما
ليس في طوقها الرحيل ولا الجـــ ... ـــد ولا أن تواصل الإقداما
تؤثر الموت في ربا النيل جوعا ... وترى العار أن تعاف المقاما

ثم يأس الشاعر للمصريين، الذين يعيشون في حمى النيل صرعى، ينتظرون القضاء عاما بعد عام، ويمسون عطاشا في بلادهم التي تروى الأنام، بل تروى الواغل، وهو الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون أن يرعى، بينما أبناء مصر يشكون شدة العطش.

فالشاعر هنا يتألم لذهاب خير مصر إلى غير أهلها، حيث ينعم به الغريب، ويتقلب في خيراتها المحتل الغاصب، بينما أهلها لا ينالهم من ذلك إلا الفتات، وأحيانا لا يجدونه، وقد أرجع الشاعر ذلك إلى لين طباع المصريين، الذي أورثهم الذل، وأطمع فيهم أوغاد الناس وأراذلهم، وإلى طيب مناخ مصر، الذي جلب إليها الناس من كل مكان، فزاحموا أهلها في خيراتها:

وبنو مصر في حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاما فعاما
أيها النيل كيف نمسى عطاشا في بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما
إن لين الطباع أورثنا الذل وأغرى بنا الجناة الطغاما
إن طيب المناخ جر علينا في سبيل الحياة ذاك الزحاما

وفي نهاية قصيدته ينادى حافظ المصلحين أن يرفقوا بقوم أقعد العجز شبابهم وشيوخهم، وأن ينقذوا نفوسا من شدة الغلاء تمنت الموت، وكادت تأكل الحنظل، بل وتطرد عنه النعام لأنها تأكله، ويطالبهم بإعادة نظام المكوس –الضرائب– التي كانت تؤخذ على السلع الواردة لتباع في المدن، وكان يتغالى في فرضها، لأن عهد هذا النظام كان أيسر على الناس وأهون ولشدة الغلاء وضيق العيش والتقتير على الناس أحس الشاعر بأن نصيب المصريين من الرزق ضئيل، فعلى المصلحين أن يعذروهم إن حسدوا أهل الشام لانتقالهم من أوطانهم إلى أوطان أخرى طلبا للرزق، وتصل روح اليأس بالشاعر إلى مداها فيرى في الختام أن بنى الإنسان قد أظلهم عصر يشقون فيه، بينما يكرم الأنعام:

أيها المصلحون رفقا بقوم قيد العجز شيخهم والغلاما
وأغيثوا من الغلاء نفوسا قد تمنت مع الغلاء الحماما
أوشكت تأكل الهبيد من الفقـــر وكادت تذود عنه النعاما
فأعيدوا لنا المكوس فإنا قد رأينا المكوس أرخى زمانا
ضاق في مصر قسمنا فاعذرونا إن حسدنا على الجلاء الشاما
قد شقينا ونحن كرمنا اللـــه بعصر يكرم الأنعاما

-والوشاة في المجتمع كثيرون، وضررهم واضح بين الناس، وكثيرا ما أحدثوا الفرقة والشقاق بينهم، ولهذا أدرك حافظ خطرهم، فراح يحذر منهم ناصحا بعدم اتخاذهم رسلا بين الناس بعامة، وبين المحبين بخاصة.

-يقول حافظ (١):

وجدوا السبيل إلى التقاطع بيننا والسمع يملكه الكذوب الحاذق

لا تجعلي الواشين رسلك في الهوى فلأصدق الرسل الجماد الناطق

" يصف في البيت الأول الوشاة وأنهم أصابوا السبيل لامتلاك سمع من يحبها بما يلقون إليها من أكاذيب، وما أقدر الكذوب على ذلك، وينهاها في البيت الثاني عن أن توسط الوشاة بينه وبينها، فإن فعلت فليكن الرسول ذلك الحاكي، فهو الجماد الناطق الصادق" (٢).

-ويتطرق حافظ في تصوير الواقع الاجتماعي في عصره إلى ظاهرة اجتماعية خطيرة تسود المجتمع أحياناً في كل عصر، وتتمثل في أن كثيرا من الناس يخدعون بالمظاهر الكاذبة، فلا يقدرون الإنسان، ولا تكون له عندهم قيمة إلا بثوب جديد وحذاء جديد كذلك، فهم مشغولون بالعرض والشكل، ويقدرون الناس من خلالهما، ولا يهتمون بالجوهر ولا حسن الخلق، والحقيقة أنها آفة اجتماعية خطيرة، لأن قيمة المرء عند هؤلاء بين ثوب باهر لونه وبين حذاء.

وقد صور حافظ ذلك، ونعى على هؤلاء سلوكهم وتصرفهم في معرض حديثه عن كساء له، فقال (٣):

يا ردائي جعلتني عند قومـــي فوق ما أشتهى وفوق الرجاء

(١) السابق ص ٢٠٧.
(٢) السابق ص ٢٠٧ هامش.
(٣) السابق ص ٢٠٦.

إن قومي تروقهم جـــدة الثـــو ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب باهر لونه وبين حذاء
قعد الفضل بي وقمت بعزى بين صحبى حزنت خير الجزاء

وكثيرة هي المظاهر والسلبيات والقضايا الاجتماعية التي اكتنفت الواقع الاجتماعي في عصر حافظ ابراهيم وعبر عنها في شعره، وصورها تصويرا صادقا من خلال إحساسه أو إحساس أفراد مجتمعه، في محاولة للتسرية عنهم وعن نفسه، والقضاء على ما في مجتمعه من السلبيات وعلاجها، وإحلال البديل الأفضل، فكان بذلك الشاعر الاجتماعي الأول في عصره.

٢- أعمال الخير والبر ومظاهرها المختلفة.

شارك حافظ ابراهيم بشعره في الكثير من أعمال البر الاجتماعية وفي كثير من الحفلات التي كانت تقام لجمع التبرعات من أجل إنشاء الملاجئ، والجمعيات الخيرية لمساعدة الأطفال الأيتام البؤساء ورعايتهم، وكم علا صوت الشاعر هنا في تلك الحفلات، وكأن ما عاناه في نشأته وحياته من بؤس وحرمان وشظف ومعاناة كان دافعا قويا لأن يعلو صوته الشعرى مناديا برعاية هؤلاء وكفالتهم اجتماعيا، وأن يسرع في المشاركة في كل حفل يقام من أجل إنشاء ملجأ للأيتام أو جمعية خيرية لرعاية البؤساء.

فنحن نلحظ في شعر حافظ الاجتماعي، حين نقلب صفحاته، بجانب دراستنا لحياته ومشاركاته الاجتماعية، نلحظ " دعوته الحارة إلى الملاجئ والجمعيات الخيرية لعون الأطفال البؤساء، وكأن ما ذاقه من طعم البؤس وعاناه من شظف العيش جعله يشعر في أعماقه بالعطف على البؤساء التعساء من أبناء الأمة، وله في ذلك أشعار كثيرة مؤثرة يستحث فيها ذوى اليسار على أن يمدوا أيديهم بالمال لعون الأطفال المحرومين رجاء أن يقيموا لهم ملاجئ، تقدم لهم الغذاء والكساء وشيئا من

المعرفة. فقد يخرج من بينهم زعيم سياسي كبير مثل سعد زغلول الخطيب المفوه، أو مصلح ديني عظيم مثل محمد عبده، أو شاعر عبقري مثل شوقي، أو قائد محنك يطهر البلاد من رجس العدو المستعمر وإثمه يقول:

أيها المثري ألا تكفل من ... بات محروما يتيماً معسرا
أنت ما يدريك لو أنبته ... ربما أطلعت بدراً نيراً
ربما أطلعت سعدا آخراً ... يحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه عبده ... من حمى الدين وزان الأزهرا
ربما أطلعت منه شاعراً ... مثل شوقي نابها بين الورى
ربما أطلعت منه فارسا ... يدخل الغيل على أسد الشرى"(١)

وفي قصيدة أخرى يدعو إلى إغاثة الأطفال البؤساء وحمايتهم من التشرد، ويصور حالهم البائسة، ومظاهر الحرمان والبؤس الظاهر عليهم تصويرا يدمى القلوب ويدفع إلى الشفقة والرحمة بهؤلاء ونقف على ذلك في قصيدته التي أنشدها في حفل أقامته جميعة رعاية الطفل بالأوبرا في ٢١ مارس ١٩١٣م، وفيها يقول(٢):

هـــذا صـــبي هـــائم ... تحـــت الظـــلام هيـــام حـــائر
أبلـــى الشـــقاء جديـــده ... وتقلمـــت منـــه الأظـــافر
فـــانظر إلـــى أســـماله ... لـــم يبـــق منهـــا مـــا يظـــاهر
هـــو لا يريـــد فراقهـــا ... خـــوف القـــوارس والهـــواجر
لكنهـــا قـــد فارقتـــ ... ـــه فـــراق معـــذور وعـــاذر

(١) السابق ص ٢٠٩، ٢١٠- الغيل: بيت الأسد. الشرى: مأسدة.
(٢) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٢٩٢،٢٩٣.

إنـــــي أعـــــد ضـــــلوعه مـــن تحتهـــا والليـــل عـــاكر
أبصـــــرت هيكـــــل عظمـــــه فـــــذكرت ســـــكان المقـــابر
فكأنمـــــا هـــــو ميـــــت أحيـــاه عيســـى بعـــد عـــاذر
قـــد كـــان يهدمـــه النســـيم وكـــان تـــذروه الأعاصـــر
وتـــراه مـــن فـــرط الهـــزال تكـــاد تثقبـــه المـــواطر
عجبـــا أيغرســـه الطـــوى فـــي قلـــب حاضـــرة الحواضـــر
وتغولـــه البـــؤس وطـــرف رعايـــة الأطفـــال ســـاهر

إنها صورة دقيقة لذلك الطفل البائس الذي طواه الطوى، وأثر فيه البؤس والحرمان والشقاء حتى أصبح صورة (شبح) إنسان لا يكاد يقوى على الحركة، إنه يتضور جوعا، ويتقلب في الشقاء، وغيره يتقلب في النعيم، ويتعجب حافظ ابراهيم كيف يحدث له ذلك وهو في (القاهرة) حاضرة الحواضر ، وفي هذا تحريك لنفوس الأثرياء لإنقاذ هذا الشقي المحروم، وتأثير في قلوبهم لتهتز شفقة ورحمة على مثل هذا المشرد الذي هو في أمس الحاجة إلى المساعدة والإغاثة والأخذ بيده لإنقاذه من براثن البؤس والحرمان، وعلى هذا الوتر يعزف حافظ ابراهيم كثيرا في شعره ألحانا قوية تعكس نفسه المكلومة بسبب هؤلاء وروحه الحزينة لما هم فيه من بؤس وشقاء، ودعوته الحارة للأثرياء من أصحاب القلوب الرحيمة الشقيقة، كي يتحركوا لإنقاذ هؤلاء وفتح الملاجئ والجمعيات الخيرية من أجلهم.

ونسير معه إلى حفل آخر لنستمع إليه وهو يعزف ذات اللحن في قصيدة أخرى من قصائده في هذا المجال، فقد كان حافظ ابراهيم فارس هذا الميدان وشاعره الأول الذي ساعدت قصائده في فتح الكثير من الملاجئ والجمعيات الخيرية ونحن معه هذه المرة في حفل آخر أقامته جماعة رعاية الأطفال بالأوبرا في أول فبراير سنة ١٩١١م، وهي تدور أيضا حول المعاني التي تدور حولها قصائده في هذا المجال من تصوير بؤس هؤلاء الأطفال وشقائهم، ودعوة الأثرياء للمشاركة في

إقامة الملاجئ والجمعيات الخيرية التي ترعى هؤلاء الأطفال، وتقدم لهم ما يحتاجون إليه في إقامة حياتهم.

وفي القصيدة التي معنا ينوه أيضا بالمشاركة في إيواء هؤلاء وكسوتهم، ويعلنها حربا على البخيل الذي لا يشارك في إنقاذ الأطفال الأيتام من بؤسهم، ويبدل شقاءهم نعيما ورخاء، وينوه بفعل الكريم، ويثني عليه لمسارعته في التبرع بما يستطيع لإعالة المشردين من اليتامى والبائسين ومساهمته في إقامة دار لرعاية هؤلاء.

والعجيب أن حافظا في هذه القصيدة يتحدث على لسان فتاة ترعى أيتاما، وهي براعة منه لكسب ود الأغنياء، والتأثير عليهم وتحفيزهم للإسراع في تلبية دعوته التي يحرص عليها في كل قصائده في هذا المجال، وهي دعوتهم إلى الإنفاق من أجل رعاية هؤلاء وإقامة دار إيواء لهم ، يقول حافظ [1]:

وإذا صيحة علت من فتاة ... برزت من صفوف ذاك الزمام

وقفت موقف الخطيب ونادت ... تلك عقبى رعاية الأيتام

بسطت تحته أكفا تلقتـ ... ـه وحاطته رغم أنف الحمام

دعوة البائس المعذب سور ... يدفع الشر عن حياض الكرام

وهي حرب على البخيل وذي البغـ ... ـي وسيف على رقاب اللئام

إن هذا الكريم قد صان عرضي ... وحماني من عاديات السقام

عل طفلي وعالني وحباني ... بكساء وبدرة وطعام

وهو من معشر أغاثوا ذوي البؤ ... س وقاموا في الله خير القيام

وأقاموا للبر دارا فكانت ... خير ورد يؤمه كل ظامي

(١) السابق ص ٢٨٦.

ثم استطرد حافظ ابراهيم بعد ذلك إلى وصف تلك الدار التي أقيمت لرعاية هؤلاء الأيتام، وما تعمر به من رحمة وشفقة بهؤلاء حتى أصبحت للبائسين دار السلام، وبدلت شقاءهم رجاء وأملا، فلم يكن من الفتاة حين رأت تلك الدار إلا أن توجهت بالشكر إلى كل من ساهم في إنشائها، وحولها إلى دار الوفاء والأمل، تغمر البسمات – التي تنطلق على شفاه البائسين – جوانبها وأرجاءها:

ملئت رحمة وفاضت حنانا فهي للبائسات دار السلام
زرتها والشقاء يجري ورائي وشعاع الرجاء يسري أمامي
لم يقولوا من الفتاة ولكن سألوني هناك عن آلامي
ثم أهــوت إلى الفريق تواســيــ ــه بأحلى من منعشات المدام
قبلت راحتيه شكرا وصاحت قد نجا صاحب الأيادي العظام
قد نجا المنعم الجواد من المــو ت بفضل الزكاة والإنعام
فأطغيا بهــا وقد ملأ الأنــ ــفس منا جلال ذاك المقام
وشهدنا ثغرة الوفاء تجلى إذ تجلى في ثغرها البسام
ورأينا شخص المروءة والبــ ــر تبدى في شخص ذاك الهمام

ويبدو أن حافظ ابراهيم كان يشارك كل عام في الحفل الذي تقيمه جمعية رعاية الأطفال اليتامى في دار الأوبرا، حيث نجد له عدة قصائد في سنوات متعاقبة في هذا الحفل، لكن العجيب أن معانيها تتشابه إلى حد بعيد وهذا أمر طبيعي لأن الموضوع في كل القصائد واحد لا يتغير وإحساس الشاعر تجاه هؤلاء البائسين واحد لا يتجزأ أيضا، كما أنه حمل على عاتقه في شعره –وعلى وجه الخصوص في قصائده التي كان ينشدها في الحفل السنوي لتلك الجمعية– دعوة الأغنياء والأثرياء للمساهمة في أعمال البر المتصلة بهؤلاء الأطفال من إقامة الدور

لرعايتهم وتقديم الغذاء والكساء لهم وانتشالهم من حياة البؤس والحرمان. لذلك كله ليس غريبا أن تتقارب المعاني والمضامين في تلك القصائد، لأن الموضوع واحد، والتجربة واحدة.

وهذه قصيدة أنشدها حافظ ابراهيم في الحفل الذي أقامته جمعية لرعاية الأطفال البائسين في الأوبرا أيضا في أبريل سنة ١٩١٠م.

وهي قصيدة تسير على النمط نفسه الذي سارت عليه قصائده الأخرى في هذا المجال، ولكنه في هذه المرة يصور حال فتاة بائسة تتضور جوعا حتى أصابها الهزال والضعف، وأصبحت كالشبح، أو كطيف الخيال، وهذه الفتاة ليست شخصا بعينه يقصده الشاعر وإنما هي رمز لمن هم في حالها، هي صورة لتلك الشريحة البائسة من الأطفال المحرومين البائسين المشردين، أحس الشاعر بمعاناتها، وتألم لألمها حين رآها في حالتها تلك، وراح في قصيدته يجرى معها حوارا حول حالتها ووضعها الاجتماعي، فتأكد له أنها يتيمة بائسة فرق لحالها فقال (١):

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال		لا بل فتاة بالعراء حيالي
أمست بمدرجة الخطوب فمالها		راع هناك ومالها من والي
حسرى تكاد تعيد فحمة ليلها		نارا بأنات ذكين طوالي
ما خطبها عجبا وما خطبي بها		مالي أشـــاطرها الوجيعة مالي
دانيتها ولصوتها في مسمعي		وقع النبال عطفن إثر نبال
وسألتها من أنت وهي كأنها		رسم على طلل من الأطلال
فتململت جزعا وقالت حامل		لم تدر طعم الغمض منذ ليالي
قد مات والدها وماتت أمها		ومضى الحمام بعمها والخال

(١) السابق ص ٢٧٥،٢٧٦.

وإلى هنا حبس الحياء لسانها		وجرى البكاء بدمعها الهطال
فعلمت ما تخفي الفتاة وإنما		يحنو على أمثالها أمثالـــي

ثم انطلق حافظ بعد ذلك يصور جمال الفتاة، ويصف رقتها وسحرها، وغير ذلك من مظاهر الجمال، الذي جار عليه البؤس والحرمان والشقاء، وكاد يقضي عليه، وما كان من حافظ إلا أن رق لحالها وحنا عليها فحملها واتجه بها إلى دار رعاية الأيتام حفاظا عليها وعلى جنينها، ودق باب الدار، ففتحت له أيد طاهرات رحيمات تعودت الإحسان والشفقة، واستقبلوه بالرفق والحنان هو ومن يحمله واهتموا بالفتاة، وأحضروا لها الطبيب الذي قام بعلاجها والاطمئنان عليها، واطمأن حافظ على الفتاة بعد أن أودعها في دار رعاية الأطفال، فودعها منشرح البال، شاكرا القائمين على الدار، الذين تجردوا للباقيات وصالح الأعمال (١):

ووقفت أنظرها كأني عابد في هيكل يرنو إلى تمثال
ورأيت آيات الجمال تكفلت بزوالهن فوادح الأثقال
لا شئ أفعل في النفوس كبائسة هيفاء روعها الأسى بهزال
أو غادة كانت تريك إذا بدت شمس النهار فأصبحت كالآل
قلت انهضي قالت أينهض ميت من قبره ويسير شن بالي
فحملت هيكل عظمها وكأنني حملت حين حملت عود خلال
وطفقت انتهب الخطا متيمما بالليل دار رعاية الأطفال باب
أمشي وأحمل بائسين فطارق الحياة ومؤذن بزوال
أبكيهما وكأنما أنا ثالث لهما من الإشفاق والإعوال

(١) السابق ص ٢٧٦، ٢٧٧.

وطرقت باب الدار لا متهيبا أحدا ولا مترقبا بسؤال
طرق المسافر آب من أسفاره أو طرق رب الدار غير مبالي
وإذا بأصوات تصيح ألا افتحوا دقات مرض مد لجين عجال
وإذا بأيد طاهرات عودت صنع الجميل تطوعت في الحال
جاءت تسابق في المبرة بعضها بعضا لوجه الله لا للمال
فتناولت بالرفق ما أنا حامل كالأم تكلأ طفلها وتوالي
وإذا الطبيب مشمر وإذا بها فوق الوسائد في مكان عالي
جاءوا بأنواع الدواء وطوفوا بسرير ضيفتهم لبعض الآل
وجثا الطبيب يجس نبضا خافتا ويرود مكمن دائـــها القتال
لم يدر حين دنا ليبلو قلبها دقات قلب أم دبيب نمال
ودعتها وتركتها في أهلها وخرجت منشرحا رضى البال
وعجزت عن شكر الذين تجردوا للباقيـــات وصالح الأعمال

وفي نهاية القصيدة يصل حافظ ابراهيم إلى مبتغاه من كل قصائده في هذا المجال، وهو شكر كل من يساهم في إقامة دار لرعاية الأيتام، والقائمين على أمر تلك الدار، الذين يهتمون برعاية الأيتام، رعاية كلها رحمة وشفقة، ويخففون عنهم معاناتهم وآلامهم، كما يكرر دعوته للأثرياء بالمساهمة في رعاية الأيتام والقضاء على بؤسهم وحرمانهم ويذكر بثواب الله المضاعف الذي ينتظرهم يوم الحساب، جزاء ما قدموا من إحسان إلى هؤلاء الأيتام فيقول [1]:

(١) السابق ص ٢٧٨،٢٧٩.

لله در الساهرين على الألى سهروا من الأوجاع والأوجال
القائمين بخير ما جاءت به مدنية الأديان والأجيال
أهل اليتيم وكهفه وحماته وربيع أهل البؤس والإمحال
لا تهملوا في الصالحات فإنكم لا تجهلون عواقب الإهمال
إني أرى فقراءكم في حاجة لو تعلمون لقائل فعال
فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم ميدان سبق للجواد النال
والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيال

ويظل حافظ ابراهيم على الدرب نفسه، في كل مناسبة تتصل بالأيتام ينتهز الفرصة للدعوة إلى رعايتهم وكفالتهم، والمحافظة عليهم من التشرد وإنقاذهم من البؤس والحرمان، ولا يني عن دعوة الأثرياء إلى المساهمة في كل أعمال البر التي تقدم إلى هؤلاء، من إقامة الملاجئ، وإنشاء الجمعيات الخيرية وتقديم الغذاء والكساء والمعرفة لهم.

وهذه قصيدة له يتحدث فيها عن ملجأ الحرية في ١٩ مايو ١٩١٩م [١]، وفيها يؤمن اليتيم ويذهب عنه الخوف والفزع، فمن اليوم لن يكون جوع ولا بؤس ولا حرمان وإنما طعام ونعيم وعيش ناضر، وأمن وأمان في رحاب هذا الملجأ الذي أنشئ من أجله، حيث أناب أغنياؤنا وتابوا وساهموا في إنشائه، وتقديم كل يد العون له ليقوم بأداء رسالته، وأصبحوا حريصين على مواساة الأيتام ورعايتهم بعد أن كان قبل اليوم متحجر القلب:

أيها الطفل لك البشرى فقد قدر الله لنا أن ننشرا
قدر الله حياة حرة وأبى سبحانه أن تقبرا

(١) السابق ص ٣١٠-٣٠٧.

لا تخف جوعا ولا عريا ولا تبك عيناك إذا خطب عـــرا
لك عند البــر فــي ملجئــه حيث تأوي خاطر لن يكسرا
حيث تلقى فيه حدبا وتــرى بين أترابك عيشا أنضـــرا
لا تسئ ظنــا بمثرينــا فقــد تاب عن آثامــه واســتغفرا
كان بالأمس وأقصـــى همــه إن أتى عارفة أن يظـــهرا
فغدا اليوم يواســي شـــعبه وهو لا يرغب في أن تشكرا
نبهــت عاطفــة البــر بــه محنة عمت ومقــدار جــرى

وعلى عادته دائما في كل قصائده، هنا يدعو إلى رعاية هؤلاء الأيتام ويطالب الأغنياء والقادرين بالمساهمة في إنشاء الملاجئ والمصارف والمصانع والنقابات وغيرها مما ينهض بالمجتمع من كبوته، ولا يجد للأغنياء والقادرين عذرا في التأخر عن المساهمة في ذلك، ولكنه هنا يدعو إلى البدء بإنشاء الملجأ الحر الذي يكفل الأيتام ويرعاهم فمن أجله جاء ينشد تلك القصيدة، ومن أجل الأيتام ورعايتهم جاء يدعو الأثرياء إلى إغاثتهم، وإنقاذهم من حياة البؤس واليتم والإعسار، فكم فيهم من لو رعيناه لكان نابها ذا شأن وقيمة في المجتمع، وكم قضى الحرمان والبؤس على مواهب لم تجد من يرعاها ويتكفل بتنميتها. ويتوجه إلى الأثرياء في نهاية قصيدته ليبين لهم عقبى رعايتهم للأيتام وحسن الثواب والجزاء الذي ينتظرهم يوم الحساب:

يا رجال الجد هذا وقته آن أن يعمل كل ما يرى
ملجا او مصرفا أو مصنعا أو نقابات لزراع القرى
أنا لا أعذر منكم من ونى وهو ذو مقدرة أو قصرا
فابدءوا بالملجأ الحر الذي جئت للأيدي له مستمطرا

واكفلوا الأيتام فيه واعلموا أن كل الصيد في جوف الفرا
أيها المثري ألا تكفل من بات محروما يتيما معسرا
كم طوى البؤس نفوسا لو رعت منبتا خصبا لكـــانت جوهرا
كم قضى اليتم على موهبة فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعاً حسبه من ربه أن يؤجرا
إنما تحمد عقبى أمره من لأخراه بدنياه اشترى

ويظل الشاعر البائس يحمل هموم البائسين، ويظل نصيرا لهم بشعره الذي يصور فيه حالهم وحياتهم، ويدعو فيه أصحاب القلوب الرحيمة إلى الإشفاق عليهم، وانتشالهم من حياة البؤس والحرمان وينتهز كل مناسبة أو حفل لجمعية خيرية ليدلي فيه بدلوه، ويكمل دوره ويتخذ من شعره في هذا الميدان وسيلة للتحريض على الاهتمام بالجمعيات الخيرية، والإكثار من إنشاء الملاجئ، وتحميس الأثرياء على المساهمة في أعمال البر.

" وكم فتحت قصائد حافظ من ملاجئ، وكم جمعت من أموال. وكان الشعب يهلل استحسانا كلما قرأ له قصيدة اجتماعية، إذ كان يجد في أشعاره وقوداً جزلا لجذوة الحياة الكريمة التي يريد أن يحياها، وقودا يشملها فلا تخمد أبدا ".(١)

وكم أنقذت قصائد حافظ في هذا المجال من أيتام وبائسين، وكم أثرت في أصحاب القلوب الرحيمة، فدفعتهم إلى البذل والعطاء، وإلى البر والإحسان، والشعر -كما نعرف- قوى التأثير في النفوس، فما بالك إذا صدر عن شاعر الشعب، الذي يحس بوطأته وآلامه، أو صدر عن شاعر بائس ذاق مرارة البؤس والحرمان مثل حافظ، لا شك في أن أثره سيكون أقوى، ولهذا حققت قصائده في هذا المجال غايتها

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ص ٢١٠.

وأهدافها، حيث كان أثرها قويا في الأثرياء، وفي القائمين على أمر الملاجئ والجمعيات الخيرية، فأحسنوا الإحسان كله إلى الأيتام، فخرج منهم رجال نابهون أفادوا مجتمعهم. على أن دور حافظ في أعمال البر والإحسان لم يتوقف عند قصائده التي دارت حول الأطفال البائسين، أو الأيتام المشردين، والدعوة إلى إقامة الملاجئ والجمعيات الخيرية من أجلهم، وإنما كانت له إسهامات شعرية أخرى في مجالات وميادين وموضوعات أخرى تتعلق أيضا بالبر والإحسان، ويبدو أن شاعرنا البائس قد حمل على عاتقه العمل على إغاثة الملهوفين، ومعاونة المحتاجين على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم، فاتخذ شعره وسيلة للدعوة إلى العطف عليهم، والإحسان إليهم، والوقوف بجانبهم لإغاثتهم ونجدتهم وإنقاذهم مما هم فيه، وكأننا بذلك أمام مصلح اجتماعي كبير، ولكنه مصلح استخدم في يده أقوى وسيلة للتأثير على السامعين، ألا وهي الشعر، الذي يفعل في النفوس فعل السحر، فانطلقت على لسانه عدة قصائد تدعو إلى البر والإحسان، وإلى الرفق بفئات أخرى غير الأيتام والمشردين.

ونذكر منها هنا قصيدته التي قالها في حفل أقامته جمعية إعانة العميان بالأوبرا لبناء مدرسة للعميان الأحداث، في ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٦م[١]، وقد صادف يوم الحفل الاحتفال بعيد جلوس السلطان حسين كامل، فنوه بذلك في مطلع القصيدة، مشيرا إلى أن الحفل قد زاد حسنا بذلك، وأن ذلك من يمن الطالع في مساعدة العميان الأحداث والوقوف بجانبهم والاهتمام بتعليمهم، ثم استرسل بعد ذلك مشيرا أيضا إلى أن من مظاهر اليمن في هذا الحفل أنه سيكون دافعا قويا للمساهمة في هذا العمل من أعمال البر بسبب مصادفته لتلك المناسبة السعيدة، منوها بحق الضرير عند ذوى الأبصار، وهو حق يستحق التقديس، والاهتمام بأدائه والقيام به،

(١) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٣٠٦،٣٠٧.

لأن ذلك من شأنه أن يخفف عن الضرير ألم فقد عينيه ثم يدعو الشاعر إلى مؤانسته والتخفيف عنه، والاهتمام بتعليمه، لأن العلم أنس النفوس، كما يطالب بتوجيه الضرير إلى مصادر الفلاح فقد يكون منهم ما يفيد مجتمعهم، وقد يقدمون ما ينفع الناس، وقد يكون فيهم عباقرة ينفعون غيرهم بعلمهم وجهدهم مثل طه حسين.

يقول حافظ:

إن يـــوم احتفـــالكم زاد حســـنا وجـــلالا بيـــوم عيـــد الجلـــوس
فاقتران اليومين رمـــز إلـــى اليمـــ ـــن وبشـــرى تســـررهن الحبـــوس
فكـــأنى أشـــيم عاطفـــة البـــ ـــر عيانـــا تجـــول بـــين الجلـــوس
وأرى فـــي الوجـــوه ســـيما ارتيـــاح وابتهـــاج لســـعى تلـــك العـــروس
إن حق الضـــرير عنـــد ذوي الإبـــ ـــصـــار حـــق مســـتوجب التقـــديس
لـــم يضـــره فقدانـــه نـــور عينـــ ـــه إذا اعتـــاض عنهمـــا بـــأنيس
آنســـوا نفســـه إذا أظلـــم العيـــ ـــش بعلـــم فـــالعلم أنـــس النفـــوس
وجهـــوه إلـــى الفـــلاح يفـــدكم فـــوق مـــا يســـتفيده مـــن دروس
أكملـــوا نقصـــه يكـــن عبقريـــا مثـــل طـــه مبـــرزا فـــي الطـــروس

ويؤكد الشاعر حديثه هنا بأن هناك كثيرا من العميان أفادوا مجتمعاتهم بعلمهم وفكرهم، فلم تقف آفة العمى حائلا بينهم وبين تحقيق تطلعاتهم وطموحاتهم، والوصول إلى أهدافهم وغاياتهم، لأنهم يستنيرون ببصائرهم، ويهتدون بها، ويتخذ الشاعر من ذلك مندوحة للتأكيد مرة أخرى على الإهتمام بتعليم العميان، فقد يكون في واحد منهم تعلم ما يغنى عن كثير من المبصرين، ذلك لأن الذكاء والحفظ ليسا مرتبطين بحاسة الإبصار، وإنما يرتبطان بالعقول:

كـــم رأينـــا مـــن أكمـــه لا يجـــارى وضـــرير يرجـــى ليـــوم عبـــوس

لـــم تقـــف آفـــة العيـــون حجـــازا بـــين وثباتـــه وبـــين الشـــموس
عـــدم الحـــس قائـــدا فحـــداه هـــدى وجدانـــه إلـــى المحســـوس
مثـــل هـــذا إذا تعلـــم أغنـــى عـــن كثيـــر وجاءنـــا بـــالنفيس
ذاك أن الـــذكاء والحفـــظ حـــلا في جـــوار النهـــى بتلـــك الـــرءوس

وفي ختام قصيدته – كعادته – يتوجه حافظ بالشكر لأعضاء الجمعية ورئيسها، ويطالب الآخرين بتوجيه الشكر لهم أيضا، فيقول:

فعلـــى كـــل أكمـــه وبصـــير شكر أعضاءكم وشـــكر الـــرئيس

ونذكر أيضا من قصائد حافظ في هذا المجال قصيدته التي أنشدها في حفل خيري أقامته جمعية الاتحاد السوري في الأوبرا السلطانية لإعانة الطلبة الشاميين بالأزهر، وذلك في ليلة الثلاثاء ١٥ يناير سنة ١٩١٦(١).

وقد بدأ الشاعر قصيدته بوصف الطبيعة ومظاهرها الخلابة، ثم انتقل للحديث عن الحرب العالمية الأولى وأهوالها، وما سببته من هلاك وفناء ودمار، وأنبائها التي تصم الأذان وتدمي القلوب، ثم أشار بعد ذلك إلى ما تنعم به مصر من نعمة الأمن وطيب المستقر في ظل سلطانها، وصاحب الدولة حسين رشدي باشا رئيس الوزراء، ثم في أبياته، بعد ذلك ، يصل إلى غرضه من قصيدته وهو الحديث عن الطلبة الشاميين في الأزهر، الذين أضرتهم الحرب، حيث منعت إمدادات أهلهم لهم من الوصول إليهم، فأصبحوا في حاجة إلى مساعدة المصريين ومعونتهم، ويحاول أن يؤثر – بشعره – في المصريين؛ ليهبوا لنجدة هؤلاء، وإنقاذهم مما نزل بهم من عناء وشقاء، لأنهم في تلك الحال أصبحوا في ضجر، ويكون عارا على المصريين أن يحدث لهم ذلك وهم بينهم، بل إنهم إن يرهقوا أو يضاموا في مصر تكون إحدى

(١) السابق ص ٢٩٩-٣٠١.

الكبر. وهنا يخاطب الشاعر قلوب المصريين الرحيمة؛ ليقفوا بجانب هؤلاء، ويمدوا إليهم يـد العون؛ لأنهم بذلك يقرضون الله الذي يضاعف الأجر والثواب، وما أعظم الأجر الذي يدخر لصاحبه إلى يوم القيامة:

إن فـي الأزهـر قومًـا نـالهم من لظـى نيرانهـا بعـض الشـرر
أصـبحوا لا قـدر الله لنـا فـي عنـاء وشـقاء وضـجر
نـزلاء بيننـا إن يرهقـوا أو يضـاموا إنهـا إحـدى الكبـر
فـأعينوهم فهـم إخـوانكم مسـهم ضـر ونـابتهم غيـر
أقرضـوا الله يضـاعف أجـركم إن خيـر الأجـر أجـر مـدخر

لقد كان حافظ ابراهيم لسان حال البؤساء والمحرومين والمنكوبين، يرثى لحالهم، ويدعو القادرين الأثرياء إلى الوقوف بجانبهم ومساعدتهم، ومد يد العون لهم، وكان شعره في ذلك عاملا قويا مؤثرا، حيث كان يحرك القلوب، ويهز الوجدان، فيندفع أصحاب القلوب الرحيمة –تأثرا بدعوته وشعره– إلى مساعدة المحرومين، والوقوف بجانب الفقراء والأيتام.

٣- التعليم وقضاياه ومظاهره.

ومن الجوانب الاجتماعية التي اهتم بها حافظ ابراهيم في شعره الاجتماعي جانب التعليم، والمشاركة في مناسبات افتتاح المدارس، والحفلات التي كانت تقيمها دور العلم لخريجيها، والتنويه بأهمية التعليم للمصريين، والحـث على التخلص من الجهل الذي كان يعاني منه كثير من المصريين آنذاك، في ظل الاستعمار وأعوانه.

وفي هذه الأثناء بدأ مشروع إقامة الجامعة المصرية طريقه فوقف حافظ أيضا بجانب دعاته، يدعو إلى إنشاء الجامعة وإقامتها، ويحث المصريين على المساهمة في إنشائها كصرح من صروح العلم التي تساعد على نهضة بلاده وتقدمها.

ولحافظ ابراهيم قصائد كثيرة أيضا في هذا المجال، ينوه فيها كثيرا بأهمية العلم، ودوره في رقى الأمم وتقدمها، وأثره في استنارة العقول، كما ينوه بفضل القائمين على أمر التعليم من المصريين.

ونشعر من خلال قصائده في هذا المجال أنه مصلح تعليمي، يحرص على تقدم أمته، وضرورة ملاحقتها علميا لأمم الغرب، كما يحرص على الدعوة إلى التوسع في إنشاء المدارس، كما نشعر أيضا أن حافظ ابراهيم كان يدرك تماما ما يعانيه الشعب المصري بسبب ما يتقلب فيه من جهل حرص المستعمر أن يظل عليه، ليضمن سيطرته على مصر والمصريين.

وكل ذلك يعكس دون أدنى شك روح حافظ الوثابة، الطامحة إلى تقدم وطنه العزيز مصر، المتطلعة إلى رقي الشعب المصري، الهادفة إلى أن ينال الشعب حظه من التعليم، وتلك وطنية صادقة، وروح ومشاركة اجتماعية مخلصة، تذكران لحافظ ابراهيم.

كان حافظ ابراهيم في جانب من شعره الاجتماعي " يدعو إلى النهوض بالتعليم وإنشاء المعاهد ودور العلم والدرس، وقد دعا دعوة حارة إلى إنشاء الجامعة القديمة، ولما فتحت أبوابها للطلاب هلل لها طويلا كما هلل لمدرسة بنات أنشئت ببورسعيد، فنظم في طلب العون لها قصيدة رائعة وهي التي يقول فيها:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق

وقد تحول فيها إلى ما يشبه مصلحا اجتماعيا يريد أن يصلح النفوس المريضة من حوله، وكان أكبر من آذاه من أصحاب هذه النفوس، كما صور ذلك في قصيدته، الفقيه الذي يحلل ما حرم الله ابتغاء منفعة عاجلة، والطبيب الذي يأكل أموال المرضى بالباطل، ومهندس الري الذي يرتشي من عمله، والأديب المنافق

الذي يقلب الباطل حقا. وكان لا يزال يصف هذه العلل وأمثالها ويرشد إلى علاجها والتخلص منها ومن أفاتها بروح الصادق المخلص الأمين "[١].

ونبدأ هنا بعرض قصيدتيه اللتين قالهما في تعضيد مشروع الجامعة المصرية نظرا لأهمية هذا التعليم لمصر آنذاك، وحرص حافظ ودعاة الإصلاح الاجتماعي والتعليمي في مصر على عدم الاكتفاء بالمدارس الأولية فقط؛ لأنها لا تخرج روادا للفكر والسياسة والاجتماع والأدب.

" حين دعا المصلحون إلى إنشاء جامعة مصرية لتصنع للبلاد رواد الفكر، تحمس الشعراء لهذه الدعوة، وآزروها، وناضلوا مع المناضلين في سبيلها "[٢].

وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين آزروا تلك الدعوة، وناضلوا من أجلها شاعرنا حافظ ابراهيم، حيث نقع على قصيدتين له في هذا المجال.

القصيدة الأولى أنشدها في الحفل الذي أقامه محفل الصدق الماسوني في دار التمثيل العربي، وخصص إيراده لمشروع الجامعة المصرية، وذلك في ١٩ مارس سنة ١٩٠٧م[٣]، وفيها يحث حافظ ابراهيم على تعضيد مشروع الجامعة، ويتهكم باهتمام الإنجليز بالمدارس الأولية فقط، ويدعو الأثرياء القادرين على بذل المال رغبة في إقامة تلك الجامعة التي تفيد مصر والمصريين، ويبين أهمية التعليم الجامعي للمصريين في تخريج العلماء من كافة المجالات، ينهضون بمصر ويحملون رايات تقدمها وحضارتها، ويقفون في وجه المستعمر الغاشم الذي يحاول إجهاض كل حركة تقدم، وكل نهضة علمية مصرية:

إن كنتم تبذلون المـــال عـــن رهـــب فنحن نـــدعوكم للبـــذل عـــن رغـــب
ذر الكتاتيـــب منشـــيها بـــلا عـــدد ذر الرمـــاد بعـــين الحـــاذق الأرب

(١) فصول في الشعر ونقده د. شوقى ضيف ص ٣٥٧.
(٢) تطور الأدب الحديث في مصر د. أحمد هيكل ص ١٣١.
(٣) ديوان حافظ ابراهيم جـ ١ ص ٢٦٥-٢٦٨.

فأنشـــأوا ألـــف كتـــاب وقـــد علمـــوا ... أن المصابيح لا تغنـــى عـــن الشـــهب
هبوا الأجيـــر أو الحـــراث قـــد بلغـــا ... حد القراءة في صـــحف وفـــي كتـــب
من المداوي إذا مـــا علـــة عرضـــت ... من المدافع عن عرض وعـــن نشـــب
ومن يروض مياه النيـــل إن جمحـــت ... وأنذرت مصر بـــالويلات، والحـــرب
ومـــن يوكـــل بالقســـطاس بيـــنكم ... حتى يرى الحق ذا حـــول وذا غلـــب
ومن يطل علـــى الأفـــلاك يرصـــدها ... بين المناطق عن بعـــد وعـــن كثـــب
يبيـــت ينبئنـــا عمـــا تـــنم بـــه ... سرائر الغيب عـــن شـــفافة الحجـــب
ومن يبز أديـــم الأرض مـــا ركـــزت ... فيها الطبيعة من بـــدع ومـــن عجـــب
يظـــل ينشـــد مـــن ذراتهـــا نبـــأ ... ضنت به الأرض في ماض من الحقب
ومن يميط ستار الجهـــل إن طمســـت ... معالم القصـــد بـــين الشـــك والريـــب
فمـــالكم أيهـــا الأقـــوام جامعـــة ... إلا بجامعـــة موصـــولة الســـبب
قـــد قـــام ســـعد بهـــا وأســـلمها ... إلى أمـــين فلـــم يحجـــم ولـــم يهـــب
فعـــانوه يعـــاونكم علـــى عمـــل ... فيه الفجار ومـــا ترجـــون مـــن أرب
وبينـــوا لرجـــال الغـــرب أنكـــم ... إذا طلبـــتم بلغـــتم غايـــة الطلـــب

وهنا يحث حافظ المصريين على ضرورة الاعتماد على أنفسهم في التعليم، فلن تنهض بلادهم إلا بهمتهم، وعلمهم وفكرهم، ويحرضهم على عدم الاعتماد على غيرهم لأن ذلك عجز ووهن لا يليق بالمصريين، كما أن بلاد الغرب لن يكونوا أحرص على بلادهم منهم، فهم لا يريدون التقدم ولا الرقي لمصر، ولذلك نجد الإنجليز يحاربون كل نزعة إلى إنهاض التعليم في مصر، لتستمر في كبوتها وضلالها، ولا تستطيع مقاومة الاستعمار أو التخلص منه، واتخذ حافظ من ذلك مندوحة لتصوير حال مصر في ظل الاستعمار، وأثر الجهل عليها، فإذا قام مناد

بالتعليم والمطالبة بالاستقلال قالوا هذا صخب وصوت عال وأسكتوه، وإذا نزل بالمصريين حادث وقاموا يزيلونه قالوا استكينوا وابتعدوا عن حدة الغضب، وإذا تطلعوا إلى السمو والتقدم ألقى الإنجليز بهم إلى الهلاك، وينتهي حافظ من ذلك إلى أنه لا خلاص للمصريين من كل ذلك إلا بالعلم، وأنه من واجبهم كي ينهضوا ببلدهم أن يساهموا في هذا المشروع الذي أقيم من أجل إنشاء تلك الجامعة التي ستكون منارة مصرية، ودافعا على تقدم المصريين وتخلصهم من كل قيد :

لا تلجئوا في العلا إلا إلى همم وثابة لا تبالي همة النوب
فإن تأميلكم في غيركم وهن في النفس يرخى عنان السعر والدأب
إن قام منا مناد قال قائلهم لا تصخبوا فإن هلاك الشعب في الصخب
أو نابنا حادث نرجو إزالته قال استكينوا وخلوا سورة الغضب
فما سمونا إلى مجد نحاوله إلا هبطنا إلى غور من العطب
فما سمونا إلى مجد هذا الياس متسع يجرى الرجاء به في كل مضطرب
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكى على بلد سال النضار به للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه كنزا من العلم لا كنزا من الذهب
هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا بالمال انا اكتتبنا فيه بالأدب

وأما القصيدة الأخرى التي أنشدها حافظ في الحث على تعضيد مشروع الجامعة فقد أنشدها في الحفل الذي أقيم في (تياترو برنتانيا) في ٨ مايو ١٩٠٨م[١]، وفيها يدعو أيضا إلى الاهتمام بإكمال إنشاء مشروع الجامعة من أجل نشر التعليم والمعرفة، ومن أجل تنشئة جيل مسلح بالعلم ينفع وطنه وأمته ويحذر المصريين من اليأس من عدم إكمال ذلك المشروع بسبب ما كان يقيمه عميد الدولة الإنجليزية من العقبات في سبيل إنشاء الجامعة، وما كان يتهم به المصريين من أنهم ليسوا أهلا للتعليم العالي، ويطالبهم لمقاومة ذلك العميد، والوقوف في وجهه بإكمال مشروع الجامعة ولا يستسلموا أبدا لأوهامه:

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا ... إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
ولا حياة لكم إلا بجامعة ... تكون أما لطلاب العلا وأبا
تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة ... من المعالى وتبنى العز والغلبا
ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم ... ضعوا النضار فإني أصغر الذهبا
وابنوا بأكبادكم سورا لها ودعوا ... قيل العدو فإني أعرف السببا
لا تقنطوا إن قرأتم ما يزوقه ... ذاك العميد ويرميكم به غضبا
وراقبوا يوما لا تفنى حصائده ... فكل حي سيجزى بالذي اكتسبا
بنى على الإفك أبراجا مشيدة ... فابنوا على الحق برجا ينطح الشهبا
وجاوبوه بفعل لا يقوضه ... قول المفند أنى قال أو خطبا
لا تهجعوا إنهم لن يهجعوا أبدا ... وطالبوهم ولكن أجملوا الطلبا

وتحفيزا للمصريين على الجد في إتمام مشروع الجامعة، وحفزا لهممهم على التغلب على كل العقبات التي قد تواجه المشروع، يذكرهم بالحرب التي كانت بين

(١) السابق ص ٢٧٢ - ٢٧٥.

الرومان والقرطاجنيين من سنة ١٤٩ ق.م إلى سنة ١٤٦ ق.م، والتي قلت فيها حبال السفن عند القرطاجنيين فذكر بعض المؤرخين أن نساءهم جدن بشعورهن لتتخذ منها تلك الحبال.

فالشاعر هنا يلجأ إلى التاريخ وما فيه من أحداث تعكس بطولة من شاركوا فيها، وتصميمهم على صد العدو رغم صعوبة العقبات وليس المصريين بأقل من هؤلاء فهم أولى بالتغلب على ما يواجه مشروع العلم والمعرفة والتحضر من عقبات أو صعوبات ولهم في أحداث التاريخ عبرة وعظة:

هل جاءكم نبأ القوم الألى درجوا ... وخلفوا للورى من ذكرهم عجبا
عزت بقرطاجنة الأمراس فارتهنت ... فيها السفين وأمسى حبلها اضطربا
والحرب في لهب والقوم في حرب ... قد مد نقع المنايا فوقهم طنبا
ودوابها وجواريهم معطلة ... لو أن أهدابهم كانت لها سببا
هنالك الغيد جادت بالذي بخلت ... به دلالا فقامت بالذي وجبا
جزت غدائر شعر سرحت سفنا ... واستنقذت وطنا واسترجعت نشبا
رأت حلاها على الأوطان فابتهجت ... ولم تحسر على الحلي الذي ذهبا
وزادها ذاك حسنا وهي عاطلة ... تزهى على مشى للحرب أو ركبا

ويقدم حافظ للمصريين عبرة أخرى أيضا من أحداث التاريخ، ليعتبروا بها في موقفهم من مشروع الجامعة حتى لا ييأسوا إذا ما واجهتهم عقبة، ولا يتوانوا إذا اعترضت طريقهم صعوبة، أو ثبطهم المستعمر الغاشم، وهو في هذه المرة يستمد من أحداث التاريخ الفرنسي، حيث يذكرهم بالقائد الفرنسي (برثران) الذي جاء مع نابليون إلى جزيرة (ألبا) ثم إلى جزيرة (سنت هيلانة) وقد توفي سنة ١٨٤٤م، وذكر الشاعر قصته مفصلة في الأبيات التالية.

وملخصها أن هذا القائد وقع في الأسر. فطلب ممن أسروه أن يفتدى نفسه، فقال لهم خذوا ما تشاءون من قناطر الذهب فظنوه يعبث بهم، فأكد لهم أنه جاد:

و(برثران) الـــذي حـــاك الإبـــاء لـــه ... ثوبا من الفخر أبلـــى الـــدهر والحقبـــا
أقام في الأســـر حينـــا ثـــم قيـــل لـــه ... ألم يـــئن أن تفـــدي المجـــد والحســـبا
قل واحتكم أنـــت مختـــار فقـــال لهـــم ... أنـــا رجـــال نهـــين المـــال والنشـــبا
خذوا القنـــاطير مـــن تبـــر مقنطـــرة ... يخـــور خـــازنكم فـــي عـــدها تعبـــا
قالوا حكمـــت بمـــا لا تســـتطيع لـــه ... حمـــلا نكـــاد نـــرى مـــا قلتـــه لعبـــا
فقـــال والله مـــا فـــي الحـــى غازلـــة ... من الحسان ترى فـــي فـــديتي نصـــبا
لـــو أنهـــم كلفوهـــا بيـــع مغزلهـــا ... لآثرتنـــى وصـــحت قوتهـــا رغبـــا
هذا هـــو الأثـــر البـــاقي فـــلا تقفـــوا ... عنـــد الكـــلام إذا حـــاولتم وأربـــا

فهو هنا يذكر بأن الكلام وحده لا يكفي ولا يعني شيئا، وإنما الفعل هو المهم، والذي ينبغي أن يقوم به المصريون ليتم مشروع جامعتهم، وليتأسوا في ذلك بغازلة الحى، التي استشهد بها القائد الفرنسي على أنه جاد، وأنها على استعداد أن تضحي بأغلى ما تملكه، وما يعينها على قوت يومها وهو المغزل لتفتدي أسيرها، لذلك عليكم أيها المصريون أن تكونوا مثلها وتضحوا بأغلى ما تملكون من أجل الجامعة.

وحذرهم – بمثل آخر ضربه في قصيدته – من الشح، وطالبهم بألا يبخلوا على جامعتهم بأي شيء ولو كان زهيدا، ولنستمع إليه يسوق هذا المثل للعظة والاعتبار:

ودونكـــم مـــثلا أوشـــكت أضـــربه ... فيكم وفي مصر إن صدقا وإن كـــذبا
ســـمعت أن امـــرأ قـــد كـــان يألفـــه ... كلب فعاشا على الإخلاص واصـــطحبا
فمـــر يومـــا بـــه والجـــوع ينهبـــه ... نهبا فلـــم يبـــق إلا الجلـــد والعصـــبا

فظل يبكي عليه حين أبصره يزول ضعفا ويقضى نحبه سغبا
يبكي عليه وفي يمناه أرغفة لو شمها جائع من فرسخ وثبا
فقال قوم وقد رقوا لذي ألم يبكي وذي ألم يستقبل العطبا
ما خطب ذا الكلب قال الجوع يخطفه منى وينشب فيه الناب مقتضبا
قالوا وقد أبصروا الرغفان زاهية هذا الدواء فهل عالجته فأبي
أجابهم ودواعي الشح قد ضربت بين الصديقين من فرط القلى حجبا
لذلك الحد لم تبلغ مودتنا أما كفي أن يراني اليوم منتحبا

ثم يطالب في نهاية القصيدة بألا يكونوا كصاحب الكلب، الذي بخل على صاحبه بالدواء، فعليهم ألا يبخلوا على الجامعة بأي شيء حتى يتم إنشاؤها، وأن يقدموا من أجلها كل ما يستطيعون، فهو قرض يقرضونه لله تعالى، وسيكون جزاؤه عظيما.

هذي دموعي على الخدين جارية حزنا وهذا فؤادي يرتعي لهبا
أقسمت بالله إن كانت مودتنا كصاحب الكلب ساء الأمر منقلبا
أعيذكم أن تكونوا مثله فنرى منكم بكاء ولا نلقى لكم دأبا
إن تقرضوا الله في أوطانكم فلكم أجر المجاهد طوبى للذي اكتتبا

وكان حافظ ابراهيم حريصا على كل احتفال تقيمه دار من دور العلم في مصر، وذلك من منطلق حرصه على تطوير التعليم في مصر، والاهتمام بالمتعلمين، الذين هم أمل الأمة وغدها المشرق، وفي كل حفل يلقي قصيدة ينوه فيها بالعلم والمتعلمين، ويشجع على الاهتمام بهما ويحث على إنشاء المدارس والتوسع في قاعدة التعليم لتزدهر مصر، وتتقدم، وترقى بعلمائها، وفي هذا دليل قوى على إخلاص حافظ لوطنه وأمته، وحرصه على تقدم مجتمعه ورقيه، ودعوته المخلصة إلى نهضة التعليم في مصر.

ونذكر من القصائد التي قالها حافظ في الحفلات، التي أقيمت من أجل العلم، قصيدته التي أنشدها في الحفل الذي أقامته مدرسة مصطفي كامل لتوزيع الجوائز على المتقدمين، من تلاميذها في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦م(١)، وفيها يشيد بالعلم، وبالتلاميذ المتفوقين، وينادى بنهضة الشرق من كبوته، فهو مستودع العلوم، وكنز المعرفة، وأرض العلماء، على الرغم مما أشاعه عنه الغرب بأنه أرض التخلف، بينما هو مهبط الأنبياء، وكثيرا ما جاء رجال الغرب وعلماؤه يطلبون الهدى والرشاد والعلم في الشرق. ويتساءل الشاعر في حسرة: كيف يشقى الشرق بحرمانه من العلوم والمعارف في زمن فاض به العلم، وأخذت كل أمة منه بحظ حتى أصبح الضعيف ذا قوة بسببه، وبما اكتسب من العلم:

سمعنا حـــديثا كقطـــر النـــدى ... فجدد في الـــنفس مـــا جـــددا
فأضـــــحى لآمالنـــــا منعشـــــا ... وأمســـــى لآلامنـــــا مرقـــــدا
فدنياك يا شـــرق لا تجـــزعن ... إذا اليوم ولـــى فراقـــب غـــدا
فكـــم محنـــة أعقبـــت محنـــة ... وولت سراعا كرجع الصـــدى
فـــلا ييئســـنك قيـــل العـــداة ... وإن كان قـــيلا كحـــز المـــدى
أتودع فيـــك كنـــوز العلـــوم ... ويمشي لك الغـــرب مســـترفدا
وتبعث في أرضـــك الأنبيـــاء ... ويأتي لك الغـــرب مسترشـــدا
وتقضى عليك قضاة الضـــلال ... طـــوال الليـــالي بـــأن ترقـــدا
أتشفي بعهـــد ســـما بـــالعلوم ... فأضحي الضـــعيف بهـــا أيـــدا

وينتقل الشاعر للحديث عن العالم ومجهوداته، فيشيد بفضله، وبمحاولته إيجاد ابتكارات كثيرة في مجال العلوم المختلفة، سواء في مجال الفلك والنجوم، أو في

(١) السابق ص ٢٦١-٢٦٣.

مجال الأرض، أو في مجال الذرة، والرياح، والطبيعة، والحديد، والكهرباء، وغيرها، وكأنه بذلك يحمس المصريين، ويزرع فيهم روح التنافس وتسابق الغرب في تلك المجالات، ويدفعهم إلى الاهتمام بالعلم، وإعداد المدارس والجامعات من أجل تخريج العلماء في المجالات المختلفة، حتى تنهض مصر من كبوتها، وينهض معها الشرق أيضا:

إذا شـــاء بزالهـــا ســـره وأدرك مـــن جريـــه المقصـــدا
وإن شاء أدنى إليه النجـوم فنـــاجي المجـــرة والفرقـــدا
وإن شاء زعزع شم الجبـال فخـــرت لأقدامـــه ســـجدا
وإن شـــاء شـــاهد فـــي ذرة عوالم لـــم تحـــي فيهـــا ســـدى
زمان تســخر فيــه الريــاح ويغـــدو الجمـــاد بـــه منشـــدا
وتعنـــو الطبيعـــة للعـــارفين بمعنى الوجـــود وســـر الهـــدى
إذا ما أهابوا أجاب الحديـد وقـــام النجـــار لـــه مســـعدا
وطارت إليهم مـــن الكهربـــا بروق على السلك تطوى المـــدى

وينتقل حافظ بعد ذلك إلى ما اعتاده في قصيدتيه السابقتين، فنجده في نهاية قصيدته يدعو بألا نقف متجمدين في مكاننا، دون أن نحاول اللحاق بغيرنا في مجال العلوم المختلفة، وعلينا أن نحاول، وأن نهتم بالعلم والتعليم، ونتخذ من اليابانيين أنموذجا نحتذى به في مجال العلوم، فقد سبقوا غيرهم من أمم الشرق إلى الإرتشاف من مناهل العلوم والمعارف، فلماذا لا نكون مثلهم؟

أيجمـــل مـــن بعـــد هـــذا وذاك بـــأن نســـتكين وأن نجمـــدا
وهـــا أمـــة (الصـــفر) قـــد مهـــدت لنـــا الـــنهج فاســـتبقوا المـــوردا

ثم يتوجه الشاعر إلى شباب مصر، فيدعوهم إلى العمل من أجل خير مصر، وأن يجدوا في طلب العلم، فسوف يكون منهم العلماء والمفكرون الذين يكونون يدا لمصر ورجالاتها في غدها، وليتخذوا من الشاب مصطفي كامل قدوة وأسوة، فهو من خير الشباب المصريين الذين لهم أياد كثيرة على مصر، والذين سيذكرهم التاريخ على مدى الزمان بالثناء لما له من فضل في كثير من المجالات وبخاصة المجال السياسي، والاجتماعي، والتعليمي:

فيـــا أيهـــا الناشـــئون اعملـــوا ... علـــى خيـــر مصـــر وكونـــوا يـــدا
ســـتظهر فـــيكم ذوات الغيـــوب ... رجـــالا تكـــون لمصـــر الغـــدا
فياليـــت شـــعري مـــن مـــنكم ... إذا هـــي نـــادت يلبـــي النـــدا
لـــك الله يـــا مصـــطفي مـــن فتـــى ... كثيـــر الأيـــادي كثيـــر العـــدا
إذا مـــا حمـــدتك بـــين الرجـــال ... فأنـــت الخليـــق بـــأن تحمـــدا
سيحصـــى عليـــك ســـجل الزمـــان ... ثنـــاء يخلـــد مـــا خلـــدا
ويهتـــف باســـمك أبناؤنـــا ... إذا آن للـــزرع أن يحصـــدا

وهلل حافظ ابراهيم في قصيدة طويلة ((لمدرسة بنات أنشئت في بور سعيد، فنظم في طلب العون لها قصيدة رائعة وهي التي يقول فيها:

الأم مدرســـة إذا أعـــددتها ... أعـــددت شـــعبا طيـــب الأعـــراق

وقد تحول فيها إلى ما يشبه مصلحا اجتماعيا يريد أن يصلح النفوس المريضة من حوله، وكان أكبر من آذاه من أصحاب هذه النفوس، كما صور ذلك في قصيدته، الفقيه الذي يحلل ما حرم الله ابتغاء منفعة عاجلة، والطبيب الذي يأكل أموال المرضى بالباطل، ومهندس الري الذي يرتشي في عمله، والأديب المنافق

الذي يقلب الباطل حقا. وكان لا يزال يصف هذه العلل وأمثالها، ويرشد إلى علاجها والتخلص منها ومن آفاتها بروح الصادق الأمين[١])).

وقد أنشد حافظ ابراهيم تلك القصيدة في حفل أقيم ببورسعيد في افتتاح مدرسة البنات بها في ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ من أجل إعانة تلك المدرسة[٢].

وقد بدأها الشاعر بتصوير ما يحمله في نفسه من حب وشوق لمصر الحبيبة، وتطلعه إلى حريتها واستقلالها، وعودة الخلال الكريمة إلى أهلها، فهو يطرب لتلك الخلال، ويلذ بها أكثر من لذته بأي شيء آخر في الوجود، ويري أن الإنسان إذا رزق الأخلاق الكريمة، فإن هذا كرم من الله سبحانه وتعالى عليه، ولهذا فإن من حكمة الله تعالى أن يتفاوت الناس لتستقيم الحياة، فهذا حظه مال، وهذا حظه علم، وذاك حظه مكارم الأخلاق، وينطلق من ذلك الحديث عن أهمية العلم في الحياة، فالمال إن لم يكن بجانبه علم يحميه، ويرشد إلى استثماره وإنفاقه في الوجوه التي تستحق الإنفاق فعلا، فإنه يكون حينئذ نهاية الفقر حيث سيتلفه صاحبه ويبدده ولن يستفيد منه، وكذلك العلم لابد أن يتميز حامله بحسن الخلق حتى يحسن استخدام علمه فيما ينفع ويفيد، وإلا كان علمه مطية إلى الإخفاق وخيبة المسعى:

كـــم ذا يكابـــد عاشـــق ويلاقـــي ... في حب مصر كثيـــرة العشـــاق
إني لأحمل فـــي هـــواك صـــبابة ... يا مصر قد خرجت عن الأطـــواق
لهفـــي عليـــك متـــى أراك طليقـــة ... يحمى كريم حماك شـــعب راقـــي
كلـــف بمحمـــود الخـــلال متـــيم ... بالبـــذل بـــين يـــديك والإنفـــاق
إنـــي لتطربنـــي الخـــلال كريمـــة ... طرب الغريـــب بأوبـــة وتلاقـــي
وتهزني ذكرى المـــروءة والنـــدى ... بـــين الشـــمائل هـــزة المشـــتاق

(١) فصول في الشعر ونقده ص ٣٥٧.
(٢) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٢٧٩-٢٨٣.

ما البابليـــة فـــي صـــفاء مزاجهـــا والشـــرب بـــين تنـــافس وســـباق
والشمس تبدو في الكئوس وتختفـــي والبدر يشرق من جبـــين الســـاقي
بألـــذ مـــن خلـــق كـــريم طـــاهر قـــد مازجتـــه ســـلامة الأذواق
فـــإذا رزقـــت خليقـــة محمـــودة فقـــد اصـــطفاك مقســـم الأرزاق
فالنـــاس هـــذا حظـــه مـــال وذا علـــم وذاك مكـــارم الأخـــلاق
والمـــال إن لـــم تـــدخره محصـــنا بـــالعلم كـــان نهايـــة الإمـــلاق
والعلـــم إن لـــم تكتنفـــه شـــمائل تعليـــه كـــان مطيـــة الإخفـــاق

وبعد أن بين الشاعر أن صاحب العلم بحاجة إلى خلق كريم حتى لا يفشل علمه، لأن حسن الخلق يوجهه إلى حسن استخدام العلم، راح يؤكد مرة أخرى أن العلم لا ينفع وحده ما لم يتوج صاحبه بالصلاح والخير، والخلق الكريم، وإن لم يكن صاحبه كذلك، فإنه قد يستخدم علمه فيما يضر ويفسد، وفي الواقع نماذج للعلماء أصحاب الخلق السيء الذين جارت أخلاقهم السيئة على علمهم، فأضروا أنفسهم ومجتمعهم ، ومن هؤلاء –مثلا– " الفقيه الذي يحلل ما حرم الله ابتغاء منفعة عاجلة، والطبيب الذي يأكل أموال المرضى بالباطل، ومهندس الرى الذي يرتشي في عمله، والأديب المنافق الذي يقلب الباطل حقا "(١).

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق
كم عالم مد العلوم حبائلا لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق

(١) فصول في الشعر ونقده ص ٣٥٧.

يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذي يدعون خدن شقاق
وطبيب قوم قد أحل لطبه مالا تحل شريعة الخلاق
قتل الأجنة في البطون وتارة جمع الدوانق من دم مهراق
أغلى وأثمن من تجارب علمه يوم الفخار تجارب الحلاق
ومهندس للنيل بات بكفه مفتاح رزق العامل المطراق
تندى وتيبس للخلائق كفه بالماء طوع الأصغر البراق
لا شيء يلوى من هواه فحده في السلب حد الخائن السراق
وأديب قوم تستحق يمينه قطع الأنامل أو لظى الإحراق
يلهو ويلعب بالعقول بيانه فكأنه في السحر رقية راق
في كفه قلم يمج لعابه سما وينفثه على الأوراق
يرد الحقائق وهي بيض نصع قدسية علوية الإشراق
فيردها سودا على جنباتها من ظلمة التمويه ألف نطاق
عريت عن الحق المطهر نفسه فحياته ثقل على الأعناق
لو كان ذا خلق لأسعد قومه ببيانه ويراعه السباق

ثم يتطرق الشاعر إلى الحديث عن تعليم البنات والنساء وتربيتهن، ويستنجد بمن يقوم بذلك، ويتكفل هو في قصيدته بالدعوة إلى ذلك، لأنه يرى أن تعليم البنات في الشرق لا يزال متأخرا، ولا يزال يمثل مشكلة أو عقدة لدى الشرقيين، ولذلك راح ينادى بتعليم البنات، لأن البنت إذا علمت، وإذا ربيت تربية علمية صالحة، فإنها ستكون أما فاضلة تنفع أبناءها ومجتمعها، وانطلق حافظ من ذلك إلى الحديث عن دور الأم المتعلمة وأثرها في المجتمع.

ولكي لا تحمل دعوته إلى تعليم البنات على المحمل السيء ، أو على غير وجهها الصحيح، راح يبين غايته من تلك الدعوة، فهو لا يدعو إلى سفور البنات أو النساء إذا خرجن إلى التعليم، ولا يدعو أن يفعلن أفعال الرجال ويتشبهن بهم، دون وازع من دين أو خلق، كما لا يدعو إلى الإسراف في حجب البنات والتضييق عليهن، بحيث يصبحن كأنهن جواهر أو حلى تصان في الأحقاق خوف الضياع، أو كأنهن أثاث يقتني ليوضع في البيوت، وإنما يدعو إلى التوسط في الحالين، والإنصاف في معاملة البنات، وتربيتهن على الفضيلة، والحرص على تعليمهن، مع العمل على تمسكهن بالحياء والأخلاق الكريمة:

من لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن في الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقبته ولا من واقي
يفعلن أفعال الرجال لواهيا ... عن واجبات نواعس الأحداق
في دورهن شؤونهن كثيرة ... كشؤون رب السيف والمزراق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا ... في الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حلى وجواهرا ... خوف الضياع تصان في الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثا يقتنى ... في الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان في أدوارها ... دولا وهن على الجمود بواقي
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا ... فالشرق في التقييد والإطلاق

ربوا البنات على الفضـــيلة إنهـــا في الموقفين لهـــن خيـــر وثـــاق
وعلـــيكم أن تســـتبين بنـــاتكم نور الهدى وعلى الحيـــاء البـــاقي

ومن قصائد حافظ ابراهيم في هذا المجال قصيدته إلى وزير المعارف سعد زغلول باشا، التي نشرت في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٦[١]، وفيها يطالب وزير المعارف بالعمل على نشر التعليم في مصر، وعدم الاستجابة للمستشار الانجليزي بوزارة المعارف، الذي يعمل على خلق العلل والمعاذير المانعة من نشر العلم في مصر، وفيها أيضا يرى أن ساسة مصر فريقان:

فريق يوافق عميد الدولة الإنجليزية على ما يرى، حتى وإن كان فيه ضرر لمصر، ومن بينه عدم نشر التعليم فيها، ليظل المصريون جاهلين تسهل السيطرة عليهم، وفريق آخر يعد مساوئ العميد في مصر، ولذلك يطالب سعدا وزير المعارف بألا يكون كبقية أعضاء الوزارة الذين كانوا يستغلون بؤس الناس لإسعاد أنفسهم، ويذكره بأنه إن نامت الوزارة عن مصالح مصر، فعليك ألا تكون مثلهم، وإنما يجب أن تكون مثل المسيح عليه السلام، الذي كانت معجزته إحياء الموتى، فأنت موكل إليك إحياء موتى العقول بنشر العلم والتعليم، والعمل على إحياء عهد الأستاذ الإمام محمد عبده في الحرص على تعليم الأمة وعدم الاستكانة للإنجليز. يقول حافظ في تلك القصيدة:

مالي أرى بحـــر الســـيا سة لا يني جزرا ولا مدا
وأرى الصحائف أيبست مـــا بيننـــا أخـــذا وردا
هذا يـــرى رأي العميـــد وذا يعـــد عليـــه عـــدا
وأرى الـــوزارة تجتنـــي من مر هذا العيش شـــهدا
نامت بمصـــر وأيقظـــت لحـــوادث الأيـــام ســـعدا

(١) ديوان حافظ إبراهيم ج ١، ص ٢٦٤،٢٦٥.

فطرحتها وســألت عنــه فقيل لي لــم يــأل جهــدا
يا سعد أنــت مســيحها فاجعل لهذا المــوت حــدا
يا سعد إن بمصر أيتامــا تؤمــل فيــك ســعدا
قــد قــام بيــنهم وبــين العلم ضيق الحــال ســدا
ما زلت أرجــو أن أراك أبــا وأن ألقــاك جــدا
حتى غــدوت أبــا لــه أضحت عيال القطر ولــدا
فاردد لنا عهــد الإمــام وكن لنا الرجــل المفــدى
أنا لا ألــوم المستشــار إذا تعلــل أو تصــدى
فســبيله أن يســتبد وشــأننا أن نســتعدا
هي ســنة المحتــل فــي كل العصور وما تعــدى

٤- محاولة وأد الفتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين.

يتألف المجتمع المصري من قديم الزمان من طائفتين كبيرتين: المسلمين والمسيحيين، وبينهما ترابط عاطفي ووجداني قوي منذ مجيء الإسلام إلى مصر، ويحاول البعض بين الحين والآخر أن يفت في عضد ذلك الترابط، هادفا من وراء ذلك إلى إحداث فتنة وصراع بين المسلمين والمسيحيين، لتفكيك الوحدة الوطنية في المجتمع المصري، ولكن المنصفين من رجالات المجتمع، ومن بينهم الشعراء يتصدون لتلك المحاولات التي تظهر بين الحين والآخر، ويقضون عليها في مهدها للحفاظ على وحدة المجتمع المصري وسلامته.

وحدث في عهد حافظ أن " أطلت تلك الفتنة برأسها كالأفعى، تحاول أن تفرق وحدة الأمة حين قتل بطرس غالى، واتخذ الاحتلال وأذنابه من قتل مسيحي بيد مسلم منفذا لبث سموم الفرقة بين المصريين، حينذاك انبرى الشعراء يعملون على

تنقية الجو من السموم، ويناضلون من أجل جمع الشمل ووحدة الصف. وفي ذلك يقول علي الغاياتي:

وما أمة القرآن في مصر أمة ترى أمة الإنجيل أبغض جـيلا
فإنا وأنتم إخـوة فـي بلادنـا أقمنا على دين السـلام طـويلا

ويقول اسماعيل صبري:

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمـد يأمراننـا بالإخـاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قـا مت بتفريقنا دواعي الشقاء

ويقول شوقي:

نعلي تعاليم المسيح لأجلهم ويوقرون لأجلنا الإسـلاما
الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما

ويقول أحمد محرم:

تعـالوا إلينـا إنمـا نحـن إخـوة وإني رأيت الأخذ بـالرفق أحزمـا
تفرقنـا الأديـان والله واحـد وكل بني الدنيا إلى آدم انتمـى"[١]

ويدلى حافظ ابراهيم بدلوه في هذه الفتنة، في قصيدة قالها في مدح الخديوي عباس عند عودة سموه من دار الخلافة، ولم يكن هذا المدح هو الغرض الأساسي للقصيدة، وإنما كان غرضها والدافع إلى نظمها، تلك القضية الاجتماعية، وهي الفتنة التي أطلت برأسها آنذاك بين مسلمي مصر وأقباطها، وقد نظمها حافظ سنة ١٩١١م[٢].

(١) تطور الأدب الحديث في مصر ص ١٣٠، ١٣١.
(٢) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٨٨ – ٢٩٢.

وقد بدأ حافظ تلك القصيدة بالغزل، ولكنه أطال فيه إلى حد كبير، حيث استغرق ستة وعشرين بيتا من أبيات القصيدة وعددها ثمانية وأربعون بيتا.

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى مدح الخديوي عباس حلمي الثاني، بصفات شاعت في المدح منذ القدم، مثل الكرم، والعزة، والمنعة، والشجاعة، وسيادة الأمن والأمان في عهده، وغير ذلك مما هو مألوف في فن المدح من الصفات والمعاني منذ القدم وذلك في عشرة أبيات أعقبت أبيات الغزل.

ويصل حافظ إلى غرضه من تلك القصيدة، وهو الحديث عن تلك الفتنة التي كادت تعصف بالوحدة الوطنية، وتزرع العداوة والبغضاء بين المسلمين والأقباط، فيوجه حديثه إلى الخديوي عباس، مبينا أن عرا المودة وروابطها كادت تتقطع بين المسلمين والمسيحيين، فتأثروا بالفتنة التي أحدثها البعض ونادى المسيحي أنه لا سلام ولا مهادنة مع المسلم، وضاق المسلم بذلك، وذلك بسبب بعض الأغبياء وقصار النظر الذين سعوا في إشعال الفتنة بين المسلمين والأقباط، بينما نجد المتعلمين أيضا يكفون ويقصرون عن إخمادها وتلافي أسبابها، وما ذلك إلا لأنهم فهموا من الأديان مالم يأت به دين ولا يرضاه، ولا يرضى عنه أصحاب العقول الواعية، وذوو الألباب السليمة، فيقول حافظ:

مولاي أمتك الوديعة أصبحت ... وعرا المودة بينها تتفصم
نادى بها القبطي ملء لهاته ... أن لا سلام وضاق فيها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها ... فجرى الغبي وأقصر المتعلم
فهموا من الأديان مالا يرتضى ... دين ولا يرضى به من يفهم

ثم يتساءل الشاعر في دهشة وعجب: ماذا أصاب أقباط مصر فنفروا من المسلمين، وقطعوا حبال المودة معهم؟ وماذا ينقمون عليهم؟ ولماذا يخشون المسلمين

وكيدهم وضررهم وأذاهم، والمسلمون نيام عـــن المكايد، لا يفكرون فيها، ولا يبيتون المكيدة أو الأذى للأقباط؟! يقول حافظ:

ماذا دها قبطي مصـــر فصـــده عن ود مسلمها وماذا يـــنقم
وعلام يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكايد نوم

ويقرر الشاعر أن ألم الحياة قد ضم المسلمين والأقباط على السواء، ولم يفرق بينهم، وأنهم جميعا يشكون من آلام الحياة ومتاعبها، فهم جميعا –المسلمون والأقباط– على حد سواء في كل شيء، فلماذا الفتنة؟ ولماذا الفرقة؟

ويتحدث الشاعر بلسان المسلمين جميعا، موجها حديثه إلى الأقباط، قائلا: إني كفيل أن أجعل المسلمين جميعهم يخلصون لكم الود، إن أخلصتم أنتم أيها المسيحيون الود لهم:

قد ضمنا ألـــم الحيـــاة وكلنـــا يشكو فنحن على السواء وأنتم
إني ضمين المسلمين جميعهم أن يخلصوا لكـــم إذا أخلصـــتم

وفي نهاية القصيدة يتوجه حافظ إلى الخديوي عباس رب المصريين جميعا بالنداء راجيا أن يقدم على عمل يجمع شتات المصريين، ويقضي على تلك الفتنة، ويحسم ذلك الخلاف، فكلتا الطائفتين: المسلمين والمسيحيين مخلص له، راض برأيه وحكمه:

رب الأريكة إننـــا فـــي حاجـــة لجميل رأيك والحوادث حـــوم
فأفض علينا من سمائك حكمـــة تأسوا القلوب فإن رأيك أحكـــم
واجمع شتات العنصرين بعزمة تأتى على هذا الخلاف وتحسم
فكلاهما لعزيز عرشك مخلـــص وكلاهما برضاك صب مغـــرم

هكذا أدلى حافظ بدلوه في تلك الفتنة، محاولا القضاء عليها، والمشاركة في عودة الود والصفاء بين المسلمين والأقباط، مدفوعا إلى ذلك بشعور المسلم السمح، وعاطفته الوطنية الصادقة، وإخلاصه لمصر، وحرصه على سلامة المجتمع وأمنه.

ثانيا: الدعابات الاجتماعية الساخرة.

عرف عن حافظ أنه كان أميرا من أمراء الدعابة والفكاهة التي تنضح بالسخرية والتهكم، وله في ذلك صولات وجولات.

وقد ظهر أثر هذه الروح الفكهة العذبة، وتلك الدعابات الساخرة في شعر حافظ، وكان لشعره الاجتماعي نصيب منها في تلك الدعابات الاجتماعية الساخرة، والصور الفكاهية التي كان يداعب بها أصحابه، ويسخر منهم أحيانا في صورة لاذعة، دون أن يغضبهم أو يجرحهم، ودون أن يغضبوا منه أو يثوروا عليه.

ومن تلك الدعابات الاجتماعية الساخرة تلك الدعابة التي داعب بها الشيخ على يوسف صاحب (المؤيد)، ((الذي كان بينه وبين السيد أحمد عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية صلة مودة وصداقة، فخطب الشيخ على ابنته السيدة صفية، ورضيت الفتاة وسكت الأب، فعقد العقد في بيت البكري من غير علم الأب، فرفع الوالد الأمر إلى المحكمة الشرعية طالبا فسخ العقد لعدم الكفاءة في النسب، ودافع الشيخ على عن نفسه، وأثبت شرف نسبه بتسجيل اسمه في دفتر الأشراف، وقضت المحكمة بالحيلولة المؤقتة بين الزوجين، ثم قضت بعد ذلك بفسخ عقد الزواج في أغسطس ١٩٠٤م، فاستأنف الزوج الحكم أمام المجلس الابتدائي الشرعي في محكمة مصر الشرعية الكبرى، فقضت بتأييد الحكم بتاريخ أول أكتوبر سنة

١٩٠٤م ، وكان لهذه القضية ثورة في الرأي العام فاضت بها الصحف وأكثر فيها الشعراء[١])).

وكان من بين الشعراء الذين أكثروا فيها بروح مرحة، ودعابة ساخرة، وفكاهة متندرة، شاعرنا حافظ ابراهيم، وذلك في قصيدة بعنوان: (زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد)، ونشرت في سبتمبر سنة ١٩٠٤م[٢].

وفيها يداعب الشيخ على يوسف، ويسخر منه بسبب الإقدام على ذلك الزواج، الذي أوقع به نفسه في الشدائد والنكبات، لطمعه الذي يشبه طمع أشعب وهو رجل من الموالي بالمدينة كان شديد الطمع، فضرب به المثل، فقيل: (أطمع من أشعب)، هذا الطمع الذي دفعه إلى الغرام -وهو في سن الكهول- بالسيدة صفية، وهي من أسرة السادة الوفائية، فضج العرش الملكي بذلك الزواج، وضج به المجتمع، فنادى البعض بإسقاط هذا الزواج وإلغائه وإسقاط صاحبه الشيخ على يوسف من عمله بالمؤيد، حيث عد عليه الكثير من السيئات، ومن بينها أنه حاول أن يلصق نفسه زورا ببيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فادعى أنه من الأشراف، وجاء الشيخ أحمد أبو خطوة قاضي المحكمة الذي حكم حكما ابتدائيا بفسخ عقد الزواج، فزكى ما ذهب إليه البعض من عدم الكفاءة في الزواج، وأن الشيخ دخيل على بيت الأشراف:

وقالوا المؤيــد فــي غمــرة ... رماه بها الطمع الأشــعبي
دعاه الغرام بســن الكهــول ... فجن جنونا ببنــت النبــي
فضج لها العرش وحــاملوه ... وضج لها القبر في يثــرب
و نــادى رجــال بإســقاطه ... وقالوا تلون فــي المشــرب

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٢٥٦ هامش.
(٢) السابق ص ٢٥٦-٢٥٩.

وعدوا عليه مـــن الســـيئات ألوف تدور مـــع الأحقـــب
وقالوا لصيق ببيت الرسول أغار على الأنسب الأنجب
وزكى أبو خطـــوة قـــولهم بحكم أحد مـــن المضـــرب

ويمعن الشاعر في التهكم اللاذع، والسخرية المريرة، فيتعجب من التهاني التي تساق إلى دار الشيخ علي يوسف كالمطر المنهمر المتدفق، بالرغم من إلغاء هذا الزواج وإبطاله، كما يتعجب للوفود التي تتوالى على بابه تزف إليه البشري، ويدهش من الخليفة العثماني الذي أنعم عليه بكثير من الرتب والأوسمة، التي لا تليق إلا بالأبي الذي لا يرضى الدنية أنفة وكبرا، ولا تليق بالشيخ على يوسف. ثم يصب الشاعر سخريته وتهكمه اللاذعين على الأمة كلها، فينعي عليها أخلاقها، فبينما هي تعد على الشيخ على يوسف السيئات، وترميه بالتقلب في الرأي، وتذكر عليه زواجه، إذا بها تتوافد على داره تزف إليه التهاني:

فما للتهـــاني علـــى داره تساقط كالمطر الصـــيب
وما للوفـــود علـــى بابـــه تزف البشائر في موكب
وما للخليفة أســـدى إليـــه وساما يليق بصدر الأب
فيا أمة ضاق عن وصفها جنان المفوه والأخطـــب

وهذه دعابة اجتماعية أخرى لحافظ تتصل بالزواج، وهي دعابة كتب بها إلى الأستاذ حامد سرى في يوم زفافه (٢ نوفمبر ١٩١٧م) يستهديه من طعام العرس وثيابا يلبسها، وكان إذ ذاك متجاورين بالجيزة.[١]

وفيها يعاتبه كيف ينساه و هو يرتبط به بصلة الجوار، ويهدده بأنه سيشكوه لوزير الزراعة، وكان حامد سري من رجال هذه الوزارة، وينكر عليه أن يشبع

(١) السابق ص ٢٠٤.

الأستاذ مصطفي الخولي الذي تربط بينه وبين حامد سرى صلة المصاهرة، بينما هو – أي حافظ ابراهيم – يتضور جوعا، وبيته فارغ لا شيء فيه مطلقا إلا صاحبه، وصاحبه عار أيضا حتى في بيته، كما أنه لا يجد في داره (جزمة) سوداء يلبسها ليقوم بزيارة حامد سرى بالرغم من تقارب بيتيهما، وقرب المزار بينهما، ويمعن في تهكمه وسخريته اللاذعة، فيخبره بأن في بيته رهطا من أصحابه آساد ضواري من شدة الجوع، ويحذره إن لم يسرع بإرسال مائدة تحمل ما لذ وطاب من اللحم والحلوى، فسيطلق عليه لسانه، وسوف يريه عاقبة احتقاره ونسيانه.

إنها دعابة فكهة، وروح حافظ المرحة، التي تميزت بالدعابة والسخرية، تقف وراء تلك الدعابة الساخرة التي أطلقها على لسانه وأرسلها إلى جاره حامد سرى.

يقول حافظ:

أحامد كيف تنسانى وبيني	وبينك يا أخي صلة الجوار
سأشكو للوزير فإن توانى	شكوتك بعده للمستشار
أيشبع مصطفي الخولي وأمسي	أعالج جوعتي في كسر داري
وبيتي فارغ لا شيء فيه	سواي وإنني في البيت عاري
ومالي جزمة سوداء حتى	أوافيكم على قرب المزار
وعندي من صحابي الآن رهط	إذا أكلوا فآساد ضواري
فإن لم تبعثن إلى حالا	بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف	ومن حمل تتبل بالبهار
فإني شاعر يخشى لساني	وسوف أريك عاقبة احتقاري

ومن دعاباته الاجتماعية الساخرة " قصيدته التي قالها في الدكتور محجوب ثابت. وكان الدكتور – كما يقولون – تطمع نفسه إلى أمرين: وزارة يتولاها، وفتاة جميلة عريقة غنية يتزوجها. يقول حافظ في مطلعها:

يرغى ويزيد بالقافات تحسبها قصف المدافع في أفــق البســاتين
من كل قاف كان الله صورها من مارج النار تصوير الشياطين

وفيها يصور أحلام الدكتور:

يبيــت ينســج أحلامــا مذهبــة تغنى تفاسيرها عن ابن ســيرين
طورا وزيرا مشاعا في وزارته يصرف الأمر في كل الدواوين
وتــارة زوج عطبــول خدلجــة حسناء تملك آلاف الفــدادين[1]
يعفي من المهر إكرامــا للحيتــه وما اظلته من دنيا ومــن ديــن

وقصيدته التي أنشدها في حفل أقيم بطنطا تكريما لصديقه المرحوم حفني ناصف، لانتقاله من القضاء إلى التفتيش (بنظارة المعارف)، وفيها كثير من الدعابات التي تدل على خفة روح حافظ، يقول منها:

لــولا الحيــاء ولــولا ديــني وعقلــي وســني
لقمت في يــوم حفنــي أدعــو لســكرة ينــي
لا تنس عيشــا تــولى مــا شــرح ومــتن
ولــى شــبابك فيــه مــا بــين مــدوغن
وذقت من (جاء زيــد) ومــن شــروح الشــمني
ومن حواشي الحواشي على متــون ابــن جنــي
ما لــم تــذقك الليــالي قلــبن ظهــر المجــن
أيــام ســلطان يلهــو بمشــه ويغنــي
يبيت يقصــع مــا لــم أســمه أو أكنــي

(١) العطبول من النساء: الغنية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق. الخدلجة: الممتلئة الذراعين والساقين.

يشـــكو إليـــك وتشـــكو إليـــــه عيشـــــة غـــــبن
أيـــام يـــدعوك حفنـــي مـــــن الحيـــاة أجرنـــي
هـــات المســـدس إنـــي ســـئمت مشـــه وجبنـــي
من لـــى بـــدرهم لحـــم عليـــــه حبـــــة ســـــمن
قرمـــــت والله حتـــــى صاحت عصافير بطنـــي[1]

ثم أحس حافظ بأنه قد خلع عن الشعر ثوب الوقار والأرستقراطية بهذه الدعابات الخفيفة، فاعتذر عن هذا المزح، وأخذ يلقى التبعة على صديقهم الدكتور (ابراهيم شدودي) وهو شاعر معروف، وكان قد نظم مقطوعة في تكريم حافظ نحا فيها هذا النحو من المزح، وذكر حافظا بعهده السابق في الجيش.

يقول حافظ من القصيدة نفسها:

أسرفت في المزح فاصفح يا سيدي واعـــف عنـــى
فالذنب ذنـــب (شـــدودي) فالعن (شدودي) ودعني
قـــد ســـن فينـــا مزاحـــا علـــى الحقيقـــة يجنـــي
ذقـــت الأمـــرين منـــه فســـل ســـليما وســـلني
واســـمع مـــديح محـــب يطـــري بحـــق ويثنـــي

وتكاد دعاباته كلها تنحصر في هذه القصائد التي أشرنا إليها، وهي لا تعتبر من أنماط الفكاهة التي تقوم على ما نسميه نحن (بالقفشات) التي تدور حول التورية والمفارقات، فقد كانت تصدر عن بديهة حاضرة وخاطر لماح كان يعرف بهما

(١) القرم: شدة الشهوة إلى اللحم

حافظ. والدعابة أخف ألوان الفكاهة، وهي فكاهة الذين يعتصمون بالتوقر، ولا تنتزع من السامعين إلا الابتسام الخفيف لا القهقهة والضحك الصاخب[1])).

ثالثا: الكوارث الطبيعية والبيئية ومظاهرها وآثارها.

كما كان لحافظ ابراهيم إسهامات في مجال الكوارث الطبيعية والمصائب التي تنزل بالناس أحيانا وتنكبهم، وتلتهم الأخضر واليابس، فكان –وهو الشاعر الاجتماعي القريب من الناس الذي يحس بآلامهم ومصائبهم– يأسى لحالهم، ويبكي على ما أصابهم، ويدعو الآخرين إلى مساعدتهم، والوقوف بجانبهم في محنتهم، ومسح دموعهم، وتخفيف آلامهم بكل ما يمكن تقديمه لهم من مساعدات.

وهي لفتة إنسانية كريمة من شاعرنا، شاعر الشعب، فهو واحد منهم، عاش بينهم، وتفاعل مع أحداث حياتهم، وأحس بمصائبهم وآلامهم، فراح يصور ما ينزل بهم من مصائب تصويرا مؤثرا، يدمي القلوب ويحثها على الرحمة بهم، والعطف عليهم.

وللشاعر في هذا المجال ثلاث قصائد مؤثرة، تناول فيها ثلاثا من الكوارث الطبيعية والبيئية التي حلت بالإنسانية في عصره، وألحقت بالناس أضرارا بالغة، ونتج عنها خسائر فادحة، وسأكتفي بعرض قصيدتين منها فقط.

وفي تناول تلك الكوارث ما يؤكد إنسانية حافظ ابراهيم وعمق مشاعره، وقوة تفاعله مع ما يصيب الناس لا في مجتمعه فحسب، وإنما في العالم أجمع، فهو الشاعر الذي يرثى للإنسان تنزل به مصيبة، مهما كان وطن ذلك الإنسان، وهو الشاعر الذي يتأثر بالكارثة التي تحل بالإنسانية مهما كان موقعها. ومهما كان جنس من أصابتهم تلك الكارثة وحلت بهم، إنها روح الشاعر ونفسه الكبيرة التي تسع العالم كله.

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ١٨٣ – ١٨٦.

أما القصيدة الأولى، فهي قصيدته في حريق ميت غمر الذي حدث في أول مايو سنة ١٩٠٢م، ونشرت تلك القصيدة في ٧ مايو سنة ١٩٠٢م(١).

وقصة هذا الحريق، ومناسبة تلك القصيدة، أن " النار شبت في مدينة ميت غمر من أعمال الدقهلية في يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢م، ٢٢ محرم سنة ١٣٢٠هـ ، وبقيت تأكل كل ما تأتي عليه في هذه المدينة حتى يوم ٨ مايو، وهلك بسبب هذا الحريق كثيرون، ودمرت كثير من الدور والمحال، ولعظم النكبة تألفت جماعة من الأعيان لتخفيف ويلات هذا المصاب، وتسابق أهل الخير فجادوا بالمال الكثير وحضت الصحف الناس على جمع المال لذلك، وفيها يقول الشاعر هذه القصيدة(٢) " .

نظم حافظ قصيدته في تصوير تلك الكارثة، وما نتج عنها من خسائر وأضرار وما حل بأهل ميت غمر من ويلات ونكبات بسببها، واستهلها بقوله:

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

وفيها يبرز لنا هذا الخطب في صورة حية تنفطر لها القلوب أسى، ولا تفقد روعتها على مر السنين، لأنها صورة صادقة رسمها من ذوب نفسه وخلجات إحساسه. وقد أعانه على هذا التصوير البديع ما عاناه في صباه وفي شبابه الأول من ألوان البؤس والشقاء، يقول في وصف الكارثة:

كيف أمسى رضيعهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح بالعجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ومر الغيث أن يسيل انهمارا

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٢٥٠ -٢٥٢.
(٢) السابق ص ٢٥٠ هامش.

أين طوفان صاحب الفلك يروى ... هذه النار فهي تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجي باتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجري يمينا ... ورمتهم والبؤس يجري يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن وقارا
أكلت دورهم فلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة ... حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما ... أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلة لا تقيهم البرد والحر ... ولا عنهم ترد الغبارا

فالشاعر استمد من ينابيع آلامه ما بث الروح في هذه الصورة، ولذلك نراه ينتفض ثائرا على المجتمع ونظامه الجائر، وكأنما كان يترقب مناسبة ليطلق ثورته على الفوارق الاجتماعية فيقول:

أيها الرافلون في حلل الوشى ... يجرون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوما جياعا ... يتوارون ذلة وانكسارا
أيهذا السجين لا يمنع السجـ ... ـن كريما من أن يقيل العثارا
مر بألف لهم وإن شئت زدها ... وأجرهم كما أجرت النصارى

يريد بالسجين: المنشاوي باشا الثرى المعروف، وكان إذ ذاك مسجونا لارتكابه جريمة تعذيب اللصوص الذين اتهموا بسرقة بعض المواشي من مزرعة سمو الخديوي عباس حلمي الثاني حتى اضطرهم إلى الإقرار بما سرقوا بتأثير العذاب. وكان ذلك في سنة ١٩٠٢م. ويشير في البيت الأخير إلى أن المنشاوي باشا كان قد أجار كثيرا من الأوربيين وحماهم من أذى المصريين في الثورة العرابية، وأنزلهم بيته.

ويندد الشاعر بسراة القوم الذين يبسطون أيديهم بالأموال على ملذاتهم وفي أفراحهم، وهم غافلون عن مواطنيهم البائسين الذين تكرثهم الخطوب ولا يجدون من يقيل عثراتهم:

قد شهدنا بالأمس في مصر عرسا ... ملأ العين والفؤاد ابتهارا
سال فيه النضار حتى حسبنا ... أن ذاك الفناء يجري نضارا
بات فيه المنعمون بليل ... أخجل الصبح حسنه فتوارى
يكتسون السرور طورا وطورا ... في يد الكأس يخلعون الوقارا
وسمعنا في ميت غمر صياحا ... ملأ البر ضجة والبحارا
جل من قسم الحظوظ فهذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا
رب ليل في الدهر قد ضم نحسا ... وسعودا وعسرة ويسارا

والعرس الذي يشير إليه الشاعر في بداية الأبيات هو عرس زواج الأمير حيدر رشدي فاضل بك من كريمة على فهمى باشا. وقد أقيم مهرجان عظيم بدار على فهمي باشا، مكث ثلاث ليال من ليلة الأربعاء ٣٠ أبريل سنة ١٩٠٢م إلى ليلة الجمعة ٢ مايو من السنة نفسها، بينما أهل ميت غمر في أهوال وويلات بسبب نار الحريق.

والحال التي صورها حافظ في تلك القصيدة قد صادفت اتفاقا في نفسه، فصور المكروبين أصدق تصوير لأنه أحس وقع البؤس طيلة حياته، فكان من السهل عليه أن يحس الألم في نفسه، كما أحسه أهل ميت غمر، ولذلك كانت تلك القصيدة ثورة عارمة لأنها صادرة من أعماق نفس تحس شقاء البائسين وآلام المرزوئين[١].

(١) انظر: ديوان حافظ ج ١ ص ٢٥٠-٢٥٢. حافظ ابراهيم شاعر النيل د. عبد الحميد سند الجندي ص ١١٧، ١١٨. بتصرف.

والقصيدة الأخرى المختارة هنا لحافظ ابراهيم في هذا المجال هي قصيدته في زلزال (مسينا) سنة ١٩٠٨م[١]، ومسينا بلد بجنوب إيطاليا معروف وقع فيه هذا الزلزال.

وهذه القصيدة هي قصيدة ذائعة الصيت مشهورة، وقد بدأها الشاعر بمخاطبة الفرقدين، وهما نجمان معروفان يسألهما ما دهى الكون؟ أهو غضب الله، أم تمرد الأرض، أم طبيعة الأكوان؟ ويبدو أن هول الزلزال وشدة وقعه على الناس، وفي نفس حافظ، أصابته بالذهول فلم يعرف ما هذا الذي حدث:

نبئـــاني إن كنتمـــا تعلمـــان ما دهى الكون أيها الفرقدان
غضـــب الله أم تمـــرد الأرض فأنحت على بنـــي الإنســـان
ليس هذا سبحان ربي ولا ذاك ولكـــن طبيعـــة الأكـــوان

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن الزلزال نفسه، فهو غليان في الأرض نفس عن ثوران الأرض والبركان، ويناجي ربه أين المفر، والبر والبحر قد التقيا على الكيد للإنسان، ويبين أن خشيته وخوفه كانا من البحر والموت فيه، فإذا بالأرض مثل البحار فيها مصادر الموت والهلاك أيضا كثيرة:

غليان في الأرض نفـــس عنـــه ثوران في البحر والبركان
رب أين المفر والبحـــر والبـــر على الكيد للورى عـــاملان
كنت أخشى البحار والموت فيها راصد غفلة مـــن الربـــان
ســـابح تحتنـــا مطـــل علينـــا جاثم حولنـــا منـــاء مـــدان
فـــإذا الأرض والبحـــار ســـواء في خلاق كلاهما غـــادران

(١) ديوان حافظ إبراهيم جـ ١ ص ٢١٥ – ٢٢٠.

ثم يتطرق الشاعر إلى (مسينا) وما حدث لها وفيها من آثار الزلزال، فوصف توابعه وآثاره، فقد محت محاسنها، وخسفت وأغرقت، وبادت، كأن لم تكن بالأمس زينة البلدان، وتمنى الشاعر أن لو أمهلها الزلزال، أو لم ينزل بها، فقد كانت مجمع اللدات والجيران وملتقى الأصدقاء والعشاق، ولكن بغت الأرض والجبال والبحر عليها، ثم صور بعد ذلك ما أحدثه فيها غليان الأرض، والرجم الذي تقذفه الجبال، وجيش الموج الذي ساقته البحار، فقد أتاها الموت والهلاك من كل مكان: الماء، والثرى، والسحاب، والجبال. ولذلك أصبح النجاء مستحيلا فقد شفي الموت غله من الخلق.

إنها صورة قاتمة حزينة تدمي القلوب، وتصيب النفوس بالأسى والحزن حسرة على المدينة المنكوبة:

ما لمسين عوجلت في صباها ودعاها من الردى داعيان
ومحت تلكم المحاسن منها حين تمت آياتها آيتان
خسفت ثم أغرقت ثم بادت قضى الأمر كله في ثواني
وأتى أمرها فأضحت كأن لم تك بالأمس زينة البلدان
ليتها أمهلت فتقضى حقوقا من وداع اللدات والجيران
لمحة يسعد الصديقان فيها باجتماع ويلتقي العاشقان
بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقدا عليها فتنشق انشقاقا من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجما وقذفا بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار ردا عليها جيش موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسود اللون جون وهنا الموت أحمر اللون قاني
جند الماء والثرى لهلاك ال خلق ثم استعان بالنيران

ودعا الســـحب عاتيـــا فأمدتـــه بجيش مـــن الصـــواعق ثـــاني
فاستحال النجاء واستحكم اليأس وخـــارت عـــزائم الشـــجعان
وشفي الموت غله مـــن نفـــوس لا تباليه فـــي مجـــال الطعـــان

ويتطرق الشاعر إلى الحديث عن (رد جركاليريا) وهي ولاية في إيطاليا، وهي القصوى من جهة الجنوب، متاخمة للبحر الأيوني، وبوغاز مسينا، وقد هدمها ما انتابها من الزلازل، فيتساءل:

أين ما كان فيها من مساكن مأهولة، ومن مناظر طبيعية جميلة؟ فقد عاجلها الزلزال مثل أختها (مسينا) ودمر كل ما فيها.

ثم يذكر الشاعر الخلق وما حدث لهم بسبب الزلزال، فهذا طفل يصرخ مناديا أمه وأباه، وتلك فتاة تشوى على الجمر، وهذا أب ذاهل يمشى إلى النار يمد يديه بحثا عن بناته وبنيه، وتأكل النار منه، والبحر يبتلع منهم الكثير، والحيتان في قيعانه تتغذى على جسومهم، والنسور في الجو كذلك، ولذلك يسخط الشاعر على الاثنين: النسور والحيتان، لأنهما أغارا على أكف براها الخالق بإتقان، ولم يرحما أناملها الغر، ولم يرفقا بتلك البنان، فلهف نفسي على تلك الأكف التي كانت قبل ذلك مصدرا للخير والجمال وتقوم بنقش الصخر وحفره، تنطق الجماد بما تصنعه فيه من جمال.

إنها صور تنطق بالحياة، وتفيض باللوعة والأسى، حزنا على ما أحدثه الزلزال من دمار وخراب، ومن أهلكهم من البشر دون رحمة أو هوادة:

أين (رد جر) وأين ما كان فيهـــا من مغـــان مأهولـــة وغـــواني
عوجلت مثـــل أختهـــا ودهاهـــا ما دهاها مـــن ذلـــك الثـــوران
رب طفل قد ساخ في باطن الأر ض ينادى أمي أبـــى أدركـــاني
وفتاة هيفاء تشوى علـــى الجـــم ر تعاني من حره مـــا تعـــاني

وأب ذاهل إلـــى النـــار يمشـــي مســـتميتا تمتـــد منـــه اليـــدان
باحثـــا عـــن بناتـــه وبنيـــه مسرع الخطو مستطير الجنـــان
تأكل النـــار منـــه لا هـــو نـــاج من لظاها ولا اللظى عنه وانى
غصت الأرض أتخم البحر ممـــا طويـــاه مـــن هـــذه الأبـــدان
وشكا الحـــوت للنســـور شـــكاة رددتهـــا النســـور للحيتـــان
أسرفا في الجسوم نقـــرا ونهشـــا ثم باتـــا مـــن كظـــة يشـــكوان
لا رعى الله ساكن القمـــم الـــش م ولا حـــاط ســـاكن القيعـــان
قد أغـــارا علـــى أكـــف براهـــا بـــارئ الكائنـــات للإتقـــان
كيف لـــم يرحمـــا أناملهـــا الـــغ ر ولـــم يرفقـــا بتلـــك البنـــان
لهف نفسي وألف لهـــف عليهـــا من أكف كانت صناع الزمـــان
مولعـــات بصـــيد كـــل جميـــل ناصـــبات حبائـــل الألـــوان
حافرات في الصخر أو ناقشـــات شـــائدات روائـــع البنيـــان
منطقـــات لســـان كـــل جمـــاد مفحمـــات ســـواجع الأفنـــان
ملهمات من دقـــة الصـــنع مـــالا يلهم الشعر من دقيـــق المعـــاني
من تماثيـــل كـــالنجوم الـــدراري يهرم الدهر وهي في عنفـــوان
عجب صـــنعها وأعجـــب منـــه صـــنعه تلـــك قـــدوة الـــرحمن

وما حدث لمسينا ذكر الشاعر بما حدث في قديم الزمان لمدينة (بمبي) وهي مدينة قديمة من إيطاليا الجنوبية تبعد اثني عشر ميلا عن نابلي إلى الجنوب الشرقي وموقعها بجوار جبل فيزوف، وقد حدث فيها زلزلتان خربتا قسما منها في سنة ٦٣م، وكان بين هاتين الزلزلتين فترة أشهر، ثم خربت بالمواد المنقذفة في ٢٤ أب سنة ٧٩م، وبقيت هذه المدينة مدة سبعة عشر قرنا بعد ذلك مطمورة، طامسة الذكر، حتى استكشفت أخيرا.

وبدأ الشاعر يصف ما حدث لتلك المدينة التي كانت درة تاج دولة الرومان، حيث غالها الزمان وأهلكها وهي في غبطة وأمان، وأهلها عاكفون في الملاهي على غناء القيان ما بين صب مدله وطروب وخليع في اللهو فهلكوا كما هلك أهل مسينا وزالت بشاشة العمران، ولكن الفارق هذا أن مسينا لن تزول من على وجه الأرض كما زالت مدينة (بمبي)، لأنه سيأتي الوقت الذي يجدد فيه عمارتها، ويعيد ما هدمته الزلازل من مغانيها، فتصبح كما كانت:

إيه (مسين) آنسي اليـــوم (بمبـــ ـــيى) فقد أوحشت بذاك المكان
آنسي الدرة التـــي كانـــت الحلـــ ـــية في تـــاج دولـــة الرومـــان
غالهـــا قبلـــك الزمـــان اغتيـــالا وهي تلهو فـــي غبطـــة وأمـــان
جاءها الأمـــر والســـراة عكـــوف في الملاهي على غنـــاء القيـــان
بـــين صـــب مدلـــه وطـــروب وخليع في اللهو مرخـــي العنـــان
فانطووا كانطواء أهلـــك بالأمـــ ـــس وزالت بشاشـــة العمـــران
أنت (مسين) لن تزولي كما زالـــ ـــت ولكن أمسيت رهـــن الأوان
إن إيطاليـــــا بنوهـــــا بنـــــاة فاطمئني ما دام في الحي بـــاني

وفي نهاية قصيدته يحيي الشاعر مسينا ويسلم عليها وعلى أهلها، ويتمنى لها أن تعود كما كانت شامخة بعمرانها ومغانيها، كما يحيي كل من بكى على (مسينا)، وتبرع من أجل إعادة تعميرها، لأن ذلك حق لها عند كل الناس، إنها لمحة إنسانية من شاعرنا حين يخاطب مدينة منكوبة بمثل ذلك، ويدعو لها بالسلام، ويتطلع إلى عودتها لزاهر عهدها، ويدعو إلى جمع التبرعات لعمارة هذا البلد، وفي الختام يدعو الجميع إلى عدم نسيان تلك المدن التي حلت بها تلك الكوارث والنكبات، وأزالت عنها مظاهر التمدن والحضارة، من صناعة وزراعة وتجارة وأغان وآداب، وعقول واعية مفكرة:

فســـــلام عليـــك يـــوم توليـــــ ت بما فيك من مغان حســـان
وســـــلام عليـــك يـــوم تعوديـــــ ن كما كنـــت جنـــة الطليـــان
وسلام من كـــل حـــي علـــى الأر ض على كل هالك فيك فـــانى
وسلام على الألـــى أكـــل الذئـــــ ـــب وناشت جوارح العقبـــان
وسلام على امـــرئ جـــاد بالدمـــــ ع وثنـــى بالأصـــفر الرنـــان
ذاك حق الإنسان عند بنـــى الإنـــــ سان لم أدعكم إلـــى إحســـان
فاكتبوا في سماء (ردجو) (ومسيـــ نا) و (كالبريـــا) بكـــل لســـان
هاهنا مصرع الصناعة والتصـــــ دير والحذق والحجا والأغاني

وهذه ((القصيدة يبدو فيها التصنع والتكلف بحيث إنك لو حذفت عنوانها ولفظة (مسين) التي وردت فيها وأردت أن تتبين غرضها من فحوى أبياتها ومعاريض لفظها لألفيت ذلك مطلبا عسيرا، حتى لقد حق لبعض الباحثين أن يسميها – دون تجن – (جغرافية البراكين). ولو أنشدتك هذين البيتين:

ليتها أمهلت فتقضي حقوقا من داع اللدات والجيران
لمحة يسعد الصديقان فيهـــا باجتماع ويلتقي العاشـــقان

ولم أقل لك إنهما من قصيدة في زلزال (مسينا) لما جرى ببالك أنه يعنى بلدا لأن ذلك بعيد عن المعقول، ولسبق إلى خاطرك أنه يذكر فتاة عجل بها قدر النوى.

ولو قرأت هذه الأبيات على غير معرفة بما يقصد الشاعر:

لا رعى الله ساكن القمم الشم ولا حاط ساكن القيعان
قد أغار على أكـــف براهـــا بارئ الكائنات للإتقـــان
كيف لم يرحما أناملها الغـــر ولم يرفقا بتلك البنـــان

(يريد النسور والحيتان) – أقول لو قرأت هذه الأبيات عرضا لاعتاص عليك أن تدرك أنه يصف زلزالا. وقد تقال في زلزال وقد تقال في حرب، وقد تقال في شيء غير هذا.

ولولا هذه الأبيات التي يصف فيها حافظ الكارثة وصفا ليس فيه إحساس الشاعر وعميق تأثره لما أدركت موضوع القصيدة والغرض الذي يقصده. وهذه هي الأبيات التي تتناول صميم الكارثة ولكن في غير حياة أو روح، ولا تعدو أن تكون شيئا أشبه بالقصص.

رب طفل قد ساخ في باطن الأر ... ض ينادى أمي أبـــى أدركـــاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـــــ ... ـــر تعاني من حره ما تعـــاني
وأب ذاهل إلـــى النـــار يمشـــي ... مســـتميتا تمتـــد منـــه اليـــدان
باحثـــا عـــن بناتـــه وبنيـــه ... مسرع الخطو مستطير الجنـــان
تأكل النـــار منـــه لا هـــو نـــاج ... من لظاها ولا اللظى عنه واني
غصت الأرض أتخم البحر ممـــا ... طويـــاه مـــن هـــذه الأبـــدان
وشكا الحـــوت للنســـور شـــكاة ... رددتهـــا النســـور للحيتـــان
أسرفا في الجسوم نقـــرا ونهشـــا ... ثم باتا من كظـــة يشـــكوان[1]))

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ١١٤، ١١٥.

المبحث الثاني

نظرات مضمونية وفنية في اجتماعيات حافظ

إذا عاودنا النظر في شعر حافظ الاجتماعي من خلال نظرة متأنية، نستطيع أن نقف على عدة ظواهر نلمسها بوضوح في هذا اللون من ألوان شعره، وهى ظواهر تكاد تطبع كل قصائده ونماذجه في الشعر الاجتماعي، كما أنها ظواهر – كما سنرى – تتناسب إلى حد كبير مع هذا اللون من الشعر.

وهي ظواهر كثيرة ومتعددة، ويأتي في مقدمتها:

١– صدق العاطفة وقوتها وسموها.

((العاطفة هي انفعال نفس الأديب بالألم المر حين يلقى إليه بنبأ محزن أو بالسرور والبهجة حين تدخل على نفسه أخبار مبهجة، هذه العاطفة يثيرها الرضى والسخط والألم والأمل فتحتشد النفس بالمعاني وتجيش بالخواطر وهكذا[١])).

وهي من أهم مقومات العمل الأدبي الفني، وهي ترتفع بالأدب إلى أقصى درجات الجودة والتأثير في نفس المتلقي إن كانت صادقة، وتهبط به كثيرا إن كانت كاذبة[٢].

والصدق في العاطفة معناه ((أن يكون الكلام معبرا عن شعور حقيقي تختلع به نفس صاحبه. وهذا أساس الفرق بين الأدب المتكلف والأدب المطبوع[٣])).

ولو رحنا نطبق هذا المقياس على نتاج حافظ الاجتماعي لوجدنا العاطفة فيه صادقة تصدر عن شعور صادق، وإحساس أصيل، فقد كان حافظ من أبرز الشعراء الذين تفاعلوا مع مجتمعهم، ووظفوا شعرهم في تصوير مفاسد وعيوب ذلك المجتمع، وعرض قضاياه ومشكلاته المختلفة من أجل النهوض به وإصلاحه.

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص ٤٨.
(٢) الفكاهة والسخرية في أدب البشري د. حبيب أبو جمعة ص ١٩١.
(٣) المختارات السائرة من روائع الأدب العربي. أنيس المقدسي ص ١٨.

ومن أجل ذلك كان حافظ في شعره الاجتماعي ينظم بإحساسه ومشاعره، وتمتزج عواطفه الجياشة بكل ما ينظم، فكان صادقا في كل ما نقل من صور المجتمع، وفي كل ما تناوله من قضاياه ومشكلاته، ليس صدقا واقعيا فحسب، ولكنه أيضا صدق فني يعكس تفاعل حافظ مع تجاربه الأدبية، وامتزاجها بروحه ودمه. فاندفاع حافظ الشديد إلى تناول قضايا مجتمعه إنما هو اندفاع عاطفي من منطلق حرصه على سلامة مجتمعه، وتخليصه مما شابه من آفات تحد من انطلاقه نحو التقدم والرقي. فحافظ حين يتناول قضايا مجتمعه محاولا إصلاحها وعلاجها، فهو يتناول بمشاعره وأحاسيسه ويصور حالته النفسية أمام هذه الظاهرة أو تلك أصدق تصوير، ويرسم موقفه من القضايا الاجتماعية رسما مؤثرا، وهذا كله مبعثه العاطفة الصادقة عنده.

وصدق العاطفة وعمق الوجدان عند حافظ يعكسان لنا – في شعره الاجتماعي – تعلقه الشديد بمجتمعه، والإحساس الصادق بقضاياه ومشكلاته، والشعور القوى بما يعانيه أفراد مجتمعه في ظل الاستعمار وأعوانه، فرأى لزاماً عليه، وهو الشاعر الاجتماعي القدير الذي عايش حياة كل الطبقات، وانطلاقا من عاطفته الاجتماعية الصادقة، أن يتناول ما يموج به مجتمعه من قضايا ومشكلات، وأن يسرى عن أفراد مجتمعه ما يعانون من آلام وبؤس وحرمان وشقاء، وأن يحاول علاج بعض الظواهر السلبية في المجتمع والقضاء عليها.

ومن هنا يمكننا القول: إن العاطفة القوية الصادقة من أبرز مميزات حافظ في شعره الاجتماعي، وما ذلك إلا لأنه كان يؤلمه كثيرا ما يشاهده في مجتمعه من ظواهر سلبية، وما عاش فيه الناس من بؤس وشقاء وحرمان، وما ران على المجتمع من الأوضاع الاجتماعية السيئة في كل جوانبه، ومحاولته الجادة إصلاح مفاسد مجتمعه، والقضاء على ما فيه من عيوب ونقائص.

وهذا هو السر في بقاء الشعر الاجتماعي الذي تركه حافظ حتى اليوم قويا خالدا مؤثرا، نطالعه فنشعر أننا نعيش في ذلك المجتمع الذي صوره حافظ، ووضع يده على مكامن الداء فيه، وبين حافظ الداء، وحاول أن يضع الدواء في حدود المتاح له.

هذا، وبالعودة إلى قراءة كثير من شواهد شعره الاجتماعي، التي وردت في ثنايا البحث، سنجد عاطفة حافظ الجياشة، ومشاعره الفياضة، وأحاسيسه الصادقة، تقف بوضوح وراء تلك الشواهد كلها، وتتراءى فيها للقارئ، كما أنها ستثير عواطف ومشاعر واحاسيس المتلقين لشعر حافظ، لاسيما شعره في الجانب الاجتماعي، وهذا كله دليل أكيد على صدق عاطفة حافظ وقوتها وسموها في شعره الاجتماعي، وأنه يندفع إلى التفاعل القوى، والانفعال الشديد، مع القضايا والموضوعات والمظاهر الاجتماعية التي تناولها في اجتماعياته، من خلال عاطفة قوية صادقة، تحركه، وتقف وراءه في ذلك الشعر الاجتماعي.

٢- وضوح النزعة الإنسانية العالمية في اجتماعياته.

وفي اجتماعيات حافظ نلحظ أنه لم يقف فيما تناول من قضايا وموضوعات عند حدود وطنه الصغير مصر، وإنما تخطى تلك الحدود إلى المحيط العالمي كله، مما يدل على إنسانية الشاعر، وسعة أفقه وإحساسه العميق بوطأة الإنسان في أي مكان في العالم، وتلك روح الشاعر التي تحلق في كل مكان تلتقط موضوعاته وتجاربه، ونفسه الشفافة التي تسع العالم كله بشعره.

وحافظ -كما نعرف عنه- هو الشاعر المرهف الحس الرقيق الشعور الذي يتأثر تأثرا شديدا بالمصيبة التي تنزل بالإنسان، أيا كان ذلك الإنسان وأين كان، ويتألم للكارثة تنزل بالإنسانية، مهما كان حجمها أو مكانها، وليس هذا بغريب على الشاعر - أي شاعر - صاحب الحس المرهف، والشعور الفياض، والإحساس

القوى، والحساسية الزائدة، وهي صفات توافرت في شخص حافظ ابراهيم، وعرف بها، وظهر أثرها في شعره، لاسيما شعره الاجتماعي.

ويدل على إنسانية حافظ، وعلى تخطيه حدود وطنه الصغير مصر، إلى العالم كله، وتأثره بما يصيب الإنسان في أي مكان، قصيدتاه في بركان(مارتنيك) و(زلزال مسينا)، فقد تناول فيهما كارثتين من كبريات الكوارث التي حلت بالإنسانية في عصره.

أما القصيدة الأولى فقد نظمها في بركان (مارتنيك) سنة ١٩٠٢م و (مارتنيك) هى إحدى جزر الهند الغربية الفرنسية وبها كثير من الفوهات البركانية، ويشير الشاعر فيها إلى الثوران البركاني الذي حدث في تلك الجزيرة، والذي لم يشهد العالم مثله في شدته وكثرة ضحاياه، وذلك في ٨ مايو سنة ١٩٠٢م(١).

وفيها يأسى الشاعر لما أصاب الأرض من كثرة الدماء الناتجة عن كثرة الصراعات بين بني الإنسان فوقها، وكأن الأرض أرادت أن تعبر عن سخطها وغضبها على بنى الإنسان بسبب تلك الصراعات، ففتحت عليهم فوهة ذلك البركان للانتقام منهم، ثم يحذر الشاعر الناس من غضب السماء أيضا، كما غضبت عليهم الأرض. يقول حافظ:

ألبسوك الدماء فوق الدماء	وأروك العداء بعد العداء
فلبست النجيع من عهد قابيـ	ـل وشاهدت مصرع الأبرياء
فلك العذر إن قسوت وإن خنـ	ـت وإن كنت مصدرا للشقاء
غلط الناس ما طغى جبل النار	بإرسال نفثة في الهواء
أحرجوا صدر أمه فأراهم	بعض ما أضمرت من البرحاء
أسخطوها فصابرتهم زمانا	ثم أنحت عليهم بالجزاء

(١) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٥٢،٢٥٣.

أيها الناس إن يكن ذلك سخط الـــ أرض ماذا يكون سخط السـماء
إن في علــو مســرحا للمقاديــــ ـــر وفي الأرض مكمنا للقضاء
فـــاتقوا الأرض والســماء ســواء واتقوا النار في الثرى والفضـــاء

وأما القصيدة الأخرى فقد نظمها الشاعر في زلزال (مسينا)(١)، وهى بلد في جنوب إيطاليا معروف وقع فيه هذا الزلزال، وفيها يصور الشاعر ما أحدثه ذلك الزلزال في المدينة من خسائر، ودمار، وخسف، وغرق، وإبادة لكل ما فيها، كما يصور ما حدث للأرض والجبال والبحر من طغيان على هذا البلد، فيقول:

ما لمسين عوجلت في صباها ودعاها من الــردى داعىـان
ومحت تلكم المحاســن منهــا حــين تمــت آياتهــا آيتـــان
خسفت ثم أغرقت ثــم بــادت قضى الأمر كلــه فـــي ثــواني
وأتى أمرها فأضحت كأن لــم تــك بـــالأمس زينـــة البلـــدان
ليتها أمهلت فتقضــى حقوقــا مـــن وداع اللـــدات والجيـــران
لمحة يسعد الصـــديقان فيهــا باجتمـــاع ويلتقـــي العاشـــقان
بغت الأرض والجبال عليهــا وطغـــى البحـــر أيمـــا طغيـــان
تلك تغلى حقدا عليها فتنشـــق انشـــقاقا مـــن كثـــرة الغليـــان
فتجيب الجبال رجمـــا وقـــذفا بشـــواظ مـــن مـــارج ودخـــان
وتســوق البحـــار ردا عليهـــا جيش موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسود اللون جـــون وهنا الموت أحمر اللون قـــاني
جند الماء والثرى لهلاك الــــ ــــخلق ثم اســتعان بـــالنيران
ودعا السحب عاتيـــا فأمـــدت ـــه بجيش من الصواعق ثـــاني

(١) السابق ص ٢١٥ – ٢٢٠.

فاستحال النجاء واستحكم اليـأ   س وخارت عـزائم الشـجعان
وشفي الموت غله من نفـوس   لا تباليه فـي مجـال الطعـان

ويأسى الشاعر لمسينا، وما حدث لها، فيقول:

فسلام عليـك يـوم توليـ   ـت بما فيك من مغان حسان
وسلام عليك يـوم تعوديـ   ـن كما كنت جنـة الطليـان
وسلام من كل حي على الأر   ض على كل هالك فيك فـانى

وفي حديثه أيضا عن التعليم وما يتصل به من قضايا ومظاهر احتفالات، يتخطى حدود مصر أيضاً إلى العالم الخارجي الكبير، إلى الولايات المتحدة، أو ما سماها هو بالدنيا الجديدة، فنجده في إحدى قصائده التي نظمها في الحفل الذي أقامته كلية البنات الأمريكية بمصر لتوزيع الشهادات على خريجاتها في ٢٦ مايو سنة ١٩٠٦- يشيد بالأمريكان، ومالهم من اختراعات علمية، وينوه بفضلهم في مجال العلم، ويطالبهم بأن يفيضوا من علمهم واختراعاتهم على العالم، أو رجال الدنيا القديمة، كما سماهم حافظ.

يقول حافظ(١) :

أي رجال الدنيا الجديدة مـدوا   لرجـال الـدنيا القديمـة باعـا
وأفيضوا عليهم مـن أياديـ   ـكم علوما وحكمة واختراعا
كل يوم لكـم روائـع آثـار   توالـون بيـنهن تباعـا
كم خلبـتم عقولنـا بعجيـب   وأمـرتم زمـانكم فأطاعـا
وبذرتم في أرضنا وزرعـتم   فرأينـا مـا يعجـب الزراعـا

(١) السابق ص ٢٥٩-٢٦٠.

ولمحنا من نوركم في نواحي حفلـــة اليـــوم لمعـــة وشـــعاعا
وشهدنا من فضلكم أثرا فيـــــ ـــها يروق العيون والأســـماعا

وفي مجال الدعوة إلى أعمال البر، وإغاثة المنكوبين، والوقوف بجانب البائسين، نجد تخطيا لحدود مصر من حافظ، ولكن هذه المرة إلى ربوع الوطن العربي، حيث نجده يأسي – في إحدى قصائده – لحال الطلبة الشاميين في مصر، الذين حالت الحرب العالمية الأولى بينهم وبين ذويهم فانقطع المدد عنهم، فدعا حافظ إلى إعانتهم ورعايتهم، والوقوف بجانبهم، ففي ذلك الأجر الكبير، والثواب العظيم عند الله تعالى. يقول حافظ[1] :

إن في الأزهر قومـــا نـــالهم من لظى نيرانها بعض الشرر
أصـــبحوا لا قـــدر الله لنـــا في عنـــاء وشـــقاء وضـــجر
نـــزلاء بيننـــا إن يرهقـــوا أو يضاموا إنها إحـــدى الكبـــر
فـــأعينوهم فهـــم إخـــوانكم مسهم ضـــر ونـــابتهم غيـــر
أقرضوا الله يضاعف أجركم إن خير الأجر أجـــر مـــدخر

٣- استلهام أحداث التاريخ وشخصياته.

ونلحظ في اجتماعيات حافظ اتكاءه على أحداث التاريخ القديم وشخصياته، وأعمالها ومآثرها، يستشهد بها أحيانا؛ ليؤكد بها القضية التي يتناولها، ويدعم بها الحدث الذي يعرض له.

ونحن نعرف أن الاستشهاد بأحداث التاريخ وشخصياته ومآثرها مطلوب أحياناً للعظة والعبرة، وحمل المخاطب على الاقتناع بما يريده المتكلم، أو التأثير فيه، وقد كان حافظ يستشهد بأحداث التاريخ وشخصياته من أجل ذلك أحيانا، ولكى يخفف من وقع الحدث الذي يعرض له على نفوس المخاطبين أحيانا أخرى.

(١) السابق ص ٣٠١.

ولا شك في أن هذا الاستشهاد يعكس ثقافة حافظ التاريخية، وإلمامه بأحداث التاريخ القديم، والإحاطة بكثير من شخصياته ودورها في التاريخ إيجابا أو سلبا، كما يعكس لنا أيضا ذكاءه وفطنته في حسن الربط بين الحدث الذي يتناوله، وبين الحدث التاريخي الذي يستشهد به، أو الشخصية التي يستشهد بها، فنجده يصنع الحدث التاريخي والشخصية التاريخية في الموضع المناسب فيأتيان داعمين لفكرته وموضوعه، كما يمنحان حجته قوة ووضوحا.

ففي قصيدته (زلزال مسينا)، نجده يرجع إلى حدثين مماثلين في التاريخ القديم، يستشهد بهما، من أجل التخفيف من حدة وقع هذا الزلزال في النفوس، والتسرية عن أهل تلك المدينة، حين يبين لهم أن من كان قبلهم قد تعرضوا لمثل ما تعرضوا، وأصابهم مثل ما أصابهم، فكأنها سنة الحياة، فلا تجزعوا ولا تيأسوا، فسوف تعود (مسينا) بجهودكم وجهود أبناء إيطاليا إلى ما كانت عليه.

أما الحدث الأول، فهو ما حدث لمدينة (ردجر كالبريا)، وهي ولاية في إيطاليا، وهي القصوى مـــن جهة الجنوب، متاخمة للبحر الأيونى وبوغاز مسينا، وقد هدمها ما انتابها من الزلازل.

ويصور الشاعر هذا الحدث، فيقول[1] :

أين (رد جر) وأين ما كان فيهـــا ... من مغـــان مأهولـــة وغـــواني

عوجلت مثـــل أختهـــا ودهاهـــا ... ما دهاها مـــن ذلـــك الثـــوران

رب طفل قد ساخ في باطن الأر ... ض ينادى أمي أبى أدركـــاني

وفتاة هيفاء تشوى على الجمـــــ ... ـــر تعاني من حره ما تعـــاني

وأب ذاهل إلـــى النـــار يمشـــي ... مســـتميتا تمتـــد منـــه اليـــدان

باحثـــا عـــن بناتـــه وبنيـــه ... مسرع الخطو مستطير الجنان

(١) السابق ص ٢١٧، ٢١٨.

وأما الحدث الآخر الذي أشار إليه حافظ في هذه القصيدة كذلك، واستشهد به للتخفيف عن أهل مسينا والتسرية عن نفوسهم، فهو ما حدث لمدينة (بمبي) وهي مدينة قديمة من إيطاليا الجنوبية تبعد اثني عشر ميلا عن نابلي إلى الجنوب الشرقي، وموقعها بجوار جبل فيزوف، وقد حدث فيها زلزلتان خربتا قسما منها في سنة ٦٣م، وكان بين هاتين الزلزلتين فترة أشهر، ثم خربت بالمواد المنقذفة في ٢٤ آب سنة ٧٩م، وبقيت هذه المدينة مدة سبعة عشر قرنا بعد ذلك مطمورة طامسة الذكر حتى استكشفت أخيرا ، وفيها يقول حافظ[١] :

إيه (مسين) آنسي اليوم (بمبـــــ ـــيى) فقد أوحشت بذاك المكان
آنسي الدرة التي كانت الحلـــــ ـــية في تـــاج دولـــة الرومـــان
غالها قبلـــك الزمـــان اغتيـــالا وهي تلهو فـــي غبطـــة وأمـــان
جاءها الأمر والسراة عكـــوف في الملاهي على غنـــاء القيـــان
بين صـــب مدلـــه وطـــروب وخليع في اللهو مرخـــي العنـــان
فانطووا كانطواء أهلك بالأمـــ ـــس وزالت بشاشـــة العمـــران

وفي قصيدته التي يحث فيها على تعضيد مشروع الجامعة، والعمل على إتمامه، والمساهمة فيه بكل غال ونفيس، لأنه مشروع يحمل عوامل الخير والتقدم والرقى لمصر، يستشهد بحدث من أحداث التاريخ كذلك، يدعم به فكرته ودعوته، فقد أراد أن يحمل الناس على التبرع والاكتتاب من أجل مشروع الجامعة وإتمامه، فقدم لهم عظة من عظات التاريخ، يوم أن وقعت الحرب بين الرومان والقرطاجنيين، من سنة ١٤٩ ق.م إلى سنة ١٤٦ ق.م، تلك الحرب التي قلت فيها حبال السفن عند القرطاجنيين، فذكر بعض المؤرخين أن نساءهم جدن بشعورهن لتتخذ منها تلك الحبال. كأن حافظا أراد أن يقول: إن نساء قرطاجنة لسن بأفضل

(١) السابق ص ٢١٩، ٢٢٠.

منكم، فقد جدن بأغلى ما يملكن، فعليكم أن تجودوا بأغلى ما تملكون أيضا لإتمام ذلك المشروع، ويالها من عظة تاريخية تحث على الإنفاق والتبرع والمساهمة من أجل ذلك المشروع.

يقول حافظ(١) :

هل جاءكم نبأ القوم الألـــى درجـــوا ... وخلفوا للورى من ذكـــرهم عجبـــا
عزت بقرطاجنة الأمراس فارتهنـــت ... فيها السفين وأمسى حبلها اضطربا
والحرب في لهب والقوم في حـــرب ... قد مد نقـــع المنايـــا فـــوقهم طنبـــا
ودوابهـــــا وجـــــواريهم معطلـــــة ... لو أن أهدابهم كانـــت لهـــا ســـببا
هنالك الغيد جـــادت بالـــذي بخلـــت ... بـــه دلالا فقامـــت بالـــذي وجبـــا
جزت غدائر شعر ســـرحت ســـفنا ... واستنقذت وطنا واسترجعت نشـــبا
رأت حلاها على الأوطان فابتهجت ... ولم تحسر على الحلي الذي ذهبـــا
وزادها ذاك حســـنا وهـــي عاطلـــة ... تزهى على مشى للحرب أو ركبـــا

وفي القصيدة نفسها أيضا يستشهد بما حدث للقائد الفرنسي (برثران) الذي ولد سنة ١٧٧٣م، ودخل الخدمة العسكرية سنة ١٧٩٢م ضابطا، وجاء مع نابليون إلى مصر حيث جعله قائدا للمدفعية وقد صحب نابليون إلى جزيرة (البا) ثم إلى جزيرة (سنت هيلانة) حيث لبث معه إلى سنة ١٨٢١م، وكانت وفاته سنة ١٨٤٤م.

هذا القائد ذكر الشاعر قصته في أبيات من تلك القصيدة، حيث تميز بالإباء والعزة، فقد أسر في إحدى المعارك، وطال أسره، فطلب منه آسروه أن يفدى نفسه، وأن يحكم هو ويختار ما يفدي به نفسه، فرد عليهم ردا يدل على إبائه وعزته مبينا أن قومه يهينون المال، ولا يبالون به، فقال لهم: لكم أن تأخذوا ما تشاءون من

---

(١) السابق ص ٢٧٣.

القناطير المقنطرة من الذهب، ولن تجدوا في حي من أحياء فرنسا غازلة من الحسان إلا وهى على استعداد للمشاركة في فدائي، حتى وإن اضطرت إلى بيع مغزلها التي تقتات به قوتها.

فعلى المصريين أن يأخذوا عبرة من هذا الحدث التاريخي، ويضحوا في سبيل الجامعة بما يستطيعون، حتى وإن كلفهم هذا قوت يومهم، لأن هذا هو ما يبقى لهم يوم الحساب.

بقول حافظ[١] :

و(برثران) الذي حاك الإباء لـــه ثوبا من الفخر أبلى الدهر والحقبا
أقام في الأسر حينا ثم قيـــل لـــه ألم يئن أن تفدي المجـــد والحســـبا
قل واحتكم أنت مختار فقال لهم أنا رجال نهـــين المـــال والنشـــبا
خذوا القناطير من تبر مقنطـــرة يخور خازنكم فـــي عـــدها تعبـــا
قالوا حكمت بما لا تستطيع لـــه حملا نكاد نرى مـــا قلتـــه لعبـــا
فقال والله ما في الحـــى غازلـــة من الحسان ترى في فديتي نصـــبا
لو أنهم كلفوهـــا بيـــع مغزلهـــا لآثرتنى وصحت قوتهـــا رغبـــا

٤ – تعدد الموضوعات والقضايا الاجتماعية:

واضح من اجتماعيات حافظ أنه لم يترك موضوعا من الموضوعات الاجتماعية أو مناسبة اجتماعية إلا ونظم فيها، مما يدل على إلمام شامل بكل جوانب الحياة الاجتماعية في عصره، ويعطينا ذلك صورة حية لشاعر تجسدت فيه كل صفات الشاعر المعاصر، وترسخت في شخصيته كل خصائص الشاعر الاجتماعي المعبر عن آلام مجتمعه ومعاناته، والمتطلع إلى إصلاحه، وتخلصه مما يعيق تقدمه، وما يحول دون تحقيق آمال وطموحات الشعب المصري آنذاك.

(١) السابق ص ٢٧٣، ٢٧٤.

لقد كان حافظ من الناحية الموضوعية واصفا بارعا للمجتمع بكل متناقضاته ونقائصه، حتى جاء شعره الاجتماعي صورة صادقة لما كانت عليه مصر في الحقبة التي عاشها حافظ، وما كان عليه القائمون على أمرها، الأمر الذي يجعل القارئ لهذا الشعر يجد صورة حية مجسدة للمجتمع المصري آنذاك(١).

فحين نعيد النظر والتأمل في اجتماعيات حافظ نجد تعددا في الموضوعات، يعكس لنا حرص حافظ على ألا تفوته مناسبة اجتماعية، أو قضية أو مشكلة اجتماعية، أو حدث اجتماعي إلا ويشارك فيه بشعره، مدفوعا إلى ذلك بعاطفته الاجتماعية الصادقة.

فمن دعوة إلى إنشاء ملجأ للأيتام والبائسين، إلى إقامة جمعية خيرية ترعى المحرومين والمنكوبين، إلى حرص على نشر التعليم والاهتمام به من أجل نهضة مصر وتقدمها، إلى تناول الواقع الاجتماعي بكل مآسيه وسلبياته، وتصوير ما يعانيه المصريون في ظل الاستعمار وأعوانه، إلى محاولة القضاء على الفتنة التي كانت تعصف بالوحدة الوطنية في مصر، وقطع أواصر الود والحب الذي يربط بين المسلمين والأقباط فيها، إلى عرض الكوارث والمصائب الطبيعية والبيئية التي تنزل بالناس أحيانا والتخفيف من وقعها على الناس، والتسرية عنهم، إلى دعابات اجتماعية ساخرة يداعب بها حافظ أصحابه وأقرانه، إلى غير ذلك مما عرضه حافظ في اجتماعياته.

وفي ذلك دلالة قوية وأكيدة على حرص حافظ ابراهيم على أن ينتهز كل فرصة ومناسبة اجتماعية ليدلي فيها بدلوه، يريد بذلك أن يقترب من الشعب، ويخفف من وطأته، ويكون شاعره الأول، وقد كان له ذلك، وأصبح معروفا بأنه شاعر الشعب، ونوه النقاد كثيرا بالجانب الاجتماعي في شعره، وحرصه على تناول كل ما يهم أفراد مجتمعه في شعره، حتى عرف أنه الشاعر الاجتماعي.

(١) الفكاهة والسخرية في أدب البشري ص ١٨٠، ١٨١ بتصرف.

٥ – التكرار المعنوي.

ومن الظواهر التي نلحظها في اجتماعيات حافظ ظاهرة التكرار المعنوي، حيث نلحظ تكرار بعض المعاني بعينها في كثير من قصائده، وأكثر ما يتضح ذلك في قصائده التي تحدث فيها عن أعمال البر، والدعوة إلى إنشاء الملاجئ والجمعيات الخيرية من أجل رعاية الأيتام، والمشردين والبؤساء من الأطفال وبخاصة عند حديثه عن دعوة الناس إلى المساهمة في أعمال البر، وبيان جزاء المتبرعين والمساهمين في أعمال البر عند الله يوم الحساب.

ومن ذلك قوله في إحدى قصائد أعمال البر: الذي يدعو فيه الناس إلى المساهمة والتبرع، ويبين فيه جزاء من أسهم يوم الحساب، وعظم هذا الجزاء(١) :

لا تهملوا في الصالحات فإنكم ... لا تجهلون عواقب الإهمال
إني أرى فقراءكم في حاجة ... لو تعلمون لقائل فعال
فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم ... ميدان سبق للجواد النزال
والمحسنون لهم على إحسانهم ... يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن ... عد وعن وزن وعن مكيال

وقوله في قصيدة أخرى في المعنى نفسه(٢) :

فأعينوهم فهم إخوانكم ... مسهم ضر ونابتهم غير
أقرضوا الله يضاعف أجركم ... إن خير الأجر أجر مدخر

وقوله في المعنى نفسه عن صنيع القائمين على أمر الجمعية الخيرية الإسلامية، وأنهم يفعلون ذلك ابتغاء الأجر والثواب من الله(٣) :

(١) ديوان حافظ ج١ ص ٢٧٩.
(٢) السابق ص ٣٠١.
(٣) السابق ص ٣٠٣، ٣٠٤.

فتلقفتـــــــني فتيـــــــة رحـــب الشـــمائل والجنـــاب
مهـــــــــدوا لأنفسهم بما صـــنعوه زلفـــى واحتســـاب
وعــــــدوا إلى الحسنى كما تعـــدوا المطهمـــة العـــراب

وفي المعنى نفسه أيضا يقول(١) :

أيها المثري ألا تكفل من بات محروما يتيما معســـرا
كل من أحيا يتيما ضائعاً حسبه من ربـــه أن يـــؤجرا
إنما تحمد عقبـــى أمـــره من لأخراه بـــدنياه اشـــترى

ويقول(٢) :

شـــاع بـــؤس الأطفـــال والبـــؤس داء لـــو أتـــيح الطبيـــب غيـــر عضـــال
أيـــدوا كـــل مجمـــع قـــام للبـــــــ ــــــر بجـــاه يظلـــه أو بمـــال
فاصـــنعوا البـــر منعمـــين وجـــودوا أيهـــا القـــادرون قبـــل الســـؤال

على أن هذا التكرار المعنوي الواضح غير معيب هنا، فهو تكرار محمود، لأن القارئ يلحظ فيه تغييرا في حلته اللفظية في كل مرة برغم تكرار المعنى، بالإضافة إلى أن الواقع الاجتماعي والتأكيد على الدعوة للمساهمة في أعمال البر وإنشاء الجامعة، وبيان فضل وثواب من يساهم في ذلك، قد فرضا على حافظ هذا التكرار.

٦- الوضوح والقرب من الأفهام شكلاً ومضمونا.

المتأمل في شعر حافظ الاجتماعي يجده يتميز بالوضوح في أسلوبه ومعانيه، ولا نعني بالوضوح هنا السطحية والسذاجة، كلا فهو شاعر كبير مجيد، وشعره قوى،

(١) السابق ص ٣٠٩، ٣١٠.
(٢) السابق ص ٣١١، ٣١٢.

وإنما نعن بالوضوح هنا السهولة التي تصل بالقاري إلى الغاية من أقرب الطرق وأسهلها، ولهذا ليس غريبا أن يطلق على حافظ شاعر الشعب؛ لأنه يتناول حياة ذلك الشعب بكل مظاهرها وقضاياها ومشكلاتها، كما أنه يخاطب الشعب بما يفهمه ويقترب من ذوقه.

وقد جاء الوضوح في شعر حافظ الاجتماعي من عدة جوانب هي: تناوله قضايا ومشكلات مشهورة ومعروفة لدى الجميع، حتى إنه كان يردد فيها أصداء ما يدور بين أفراد مجتمعه من أراء ومواقف، ومنها أنه -كما قلنا- شاعر الشعب، يعيش بين أفراده، ويتحدث بلغته، ويقترب من ذوقه، فكان لزاما عليه أن يلتزم الوضوح من أجل الجماهير العريضة التي تسمع إليه وتقبل على شعره، ومنها اعتماده على الأسلوب التقريري المباشر الذي يناسب الأدب الاجتماعي الواقعي في أغلب الأحيان، ومنها كذلك قلة الخيال والتصوير في اجتماعياته، وهو جانب يلحظه القارئ لاجتماعياته لأنه اعتمد فيه على عرض الحقائق عرضا مباشرا بعيدا عن لغة الإيحاء والتصوير، ومنها اعتماده على الألفاظ السهلة الكثيرة الاستعمال الدارجة على الألسنة.

واقرأ له هذه الأبيات التي ينعى فيها على الأمة أخلاقها والتقلب والخداع، إلى الحد الذي تضيع معه الحقيقة، ويعذب البريء مع المذنب، ويذل الإمام الحكيم، ويكرم الغبي الجهول[1] :

فيا أمة ضــاق عــن وصــفها ... جنـــان المفـــوه والأخطـــب

تضيع الحقيقــة مـــــا بيننـــا ... ويصلي البريء مــع المــذنب

ويهضم فينـــا الإمـــام الحكــيم ... ويكـــرم فينـــا الجهــول الغبـــي

وأبياته التي يتحدث فيها عن الجمعية الخيرية الإسلامية وما قامت من أجله، والتي يشير فيها إلى بعض أقطابها الذين كان لهم دور بارز في إنشائها، والقيام

(١) السابق ص ٢٥٩.

بواجبها على أحسن وجه، وفي مقدمتهم الإمام الشيخ محمد عبده، وحسن عاصم باشا[١] :

جمعيــــــــــة خيريــــــــــة   قامــت لتخفيــف المصـــاب
قـــد كـــان فيهـــا عبـــده   غوثـــا يلبـــي مـــن أهـــاب
لـــم يـــدع مســـماحا إلـــى   إنعاشـــــــها إلا أجـــــاب
مـــا غـــاب عنهـــا مـــرة   حتى تغيــب فـــي التـــراب
ولعاصــــم أثــــر بهــــا   بـــاق وذكـــر مســـتطاب
قـــد كـــان يحميهـــا كمـــا   تحمـــي مجاثمهـــا العقـــاب
ثبتـــــت وكـــــان ثباتهـــــا   يدعو إلى العجــب العجــاب

اقرأ له هذه الأبيات، وغيرها كثير من نماذج شعره الاجتماعي، ترى الوضوح بارزا فيها، حيث تطالعها فتدرك للوهلة الأولى ما أراده حافظ منها، وتصل إلى مضامينها ومعانيها من أيسر الطرق.

لا ينفي هذا الوضوح ورود بعض الألفاظ الغريبة في اجتماعياته، وهي ألفاظ لم تعد تستعمل إلا في ندرة حتى في عصر حافظ نفسه، ولا يدرك معناها إلا بالعودة إلى معاجم اللغة.

وهذه الألفاظ لا شك في أنها كانت نتيجة ثقافة حافظ القديمة وتمسكه بأهداب القديم، والنسج على منواله، لكونه من أبرز شعراء المحافظة والتقليد في عصره.

فلم تؤثر تلك الألفاظ كذلك في سمة الوضوح عنده، لأنها جاءت بندرة في اجتماعياته، ونذكر منها:

لفظة (الهبيد) بمعنى: حب الحنظل في قوله[١] :

(١) السابق ص ٣٠٤، ٣٠٥.

أوشكت تأكل الهبيد من الفقر وكادت تذود عنه النعاما

ولفظة (الطغام) بمعنى: أوغاد الناس وأراذلهم، في قوله[٢]:

إن لين الطباع أورثنا الذل وأغـــرى بنـــا الجنـــاة الطغامـــا

ولفظة (الواغل) بمعنى: الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون أن يدعى، ولفظه (الأوام) بمعنى: شدة العطش. في قوله[٣]:

يرد الواغل الغريب فيروي وبنـــوك الكـــرام تشـــكو الأوامـــا

ولفظة (الطروس): جمع طرس، وهو الصحيفة يكتب فيها، في قوله[٤]:

أكملوا نقصه يكن عبقريا مثل طه مبـــرزا فـــي الطـــروس

ولفظة (عرا) بمعنى: ألم ونزل في قوله[٥]:

لا تخف جوعا ولا عريا ولا تبـــك عينـــاك إذا خطـــب عـــرا

ولفظة (المزراق) بمعنى: الرمح، في قوله[٦]:

في دورهن شؤونهن كثيرة كشؤون رب الســـيف والمـــرزاق

٧- التصوير الحي المؤثر.

على الرغم من أن الشعر الاجتماعي يغلب عليه الطابع التقريري الواقعي في عرض القضايا والمشكلات المختلفة، وفي تناول الإيجابيات والسلبيات، حيث من

(١) السابق ص ٣١٧.
(٢) السابق ص ٣١٧.
(٣) السابق ص ٣١٧.
(٤) السابق ص ٣٠٦.
(٥) السابق ص ٣٠٧.
(٦) السابق ص ٢٨٢.

المتوقع أن كل ذلك قد يقتضى من الشعراء اللجوء إلى الأسلوب التقريري المجرد المباشر، في محاولة للقرب من أفهام عامة المتلقين المخاطبين بذلك اللون من الشعر.

على الرغم من ذلك كله، وغيره مما قد يتطلبه الشعر الاجتماعي، إلا أن حافظ ابراهيم قد خالف تلك التوقعات، وتجاوز تلك الخصائص والسمات، التي تغلب على الشعر الاجتماعي، ومال في نماذج كثيرة من شعره الاجتماعي، إلى عنصر التصوير الحي المؤثر والمثير، ولجأ كثيراً إلى وسائل الظلال والإيحاء، والمفردات المشعة ذات الدلالات البعيدة الموحية، وكأنه أراد بذلك أن يلج إلى قلوب المتلقين، ويثير وجداناتهم، ويحرك مشاعرهم وعواطفهم، ويؤثر فيهم بشدة؛ ليحقق من وراء ذلك أهدافه وغاياته، التي يسعى إلى تحقيقها من وراء شعره الاجتماعي، وهذا جانب يحمد لحافظ ابراهيم في شعره الاجتماعي، ومظهر من المظاهر الحسنة الكثيرة التي أضفت على شعره الاجتماعي الحيوية والجمال.

والصور الحيوية الجميلة والمثيرة والمؤثرة كثيرة في شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، وجاءت كثرتها على غير المتوقع كما قلت في ذلك اللون من الشعر.

من ذلك – مثلا– ما نجده في أبياته، التي يقدم فيها صورة دقيقة للأم، ودورها في الحياة، وأثرها في تربية وبناء الأجيال المتعاقبة، وتقديم الأبناء المخلصين الأوفياء لوطنهم، المفيدين لغيرهم.

وهو في تلك الصورة يراها مدرسة في الحياة يتعلم فيها ومنها الأبناء وغيرهم، وتقدم لهم القدوة الحسنة، ولها دورها المهم أيضا في إعداد وتعليم وتوجيه الشعوب الطيبة الواعية، كما يراها روضا مزهرا مشرقا تضفي الحياة والحيوية على من وما يحيط بهما، بحسن تعاملها معهم، وحسن توجيهها لهم، وكأن ما يصدر عنها من توجيهات ونصائح وإرشادات موجهة للأبناء وغيرهم، تشبه أزهار الروض وورده في الربيع ، وتماثلها في شذاها وحسن رائحتها، وروعة جمالها وعطر أريجها

الفياح؛ ولذلك يتأثر بها كل من حولها، وتثيرهم فيندفعون إلى الاستجابة لكل ما يصدر عن الأم؛ لينير حياتهم، ويضيئ لهم طريق الحياة، كما تثير أزهار الربيع ووروده اليانعة في الروض كل من يراها، ويشم أريجها وعطرها الفياح، ويراها كذلك أستاذ الأساتذة، بما لها من مآثر حسنة، وآثار طيبة في الحياة، وتوجيهات سديدة أمينة للنشئ، وبما لها من دور مهم في الحياة، يفوق دور الأساتذة والمعلمين في كثير من الأحيان، ويتفوق أثرها في التربية والتعليم على أثرهم.

يالها من صورة بديعة دقيقة، تتسم بالحيوية والحركة والجمال، قدمها حافظ في تلك الأبيات، للمرأة بشكل عام، والأم بشكل خاص، ودورها المهم والحيوي في الحياة، وأثرها القوي والحسن في تربية الأجيال وإعدادهم وتوجيههم، وفي تقدم الشعوب والأمم وتطورها ونهضتها في كل زمان ومكان.

يقول حافظ في تلك الأبيات(١) :

الأم مدرسـة إذا أعـددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق

الأم روض إن تعهده الحيا ... بالري أورق أيمـا إيـراق

الأم أستاذ الأسـاتذة الألـى ... شغلت مآثرهم مدى الآفـاق

ومن ذلك أيضا بعض صوره الرائعة، التي صور بها اللغة العربية، ومكانتها وأهميتها، وجمالياتها، في قصيدته (اللغة العربية تتحدث عن نفسها)(٢)، التي يدافع فيها عن اللغة العربية أمام الهجمات الشرسة عليها، واتهامها بالعجز عن مجاراة التطور العلمي، وعن استيعاب المصطلحات العلمية الجديدة، وهى قصيدة تزخر بالكثير من الصور الحيوية الجميلة، والموحية والمثيرة، التي تعكس دفاعه الصادق عن اللغة العربية، وتؤكد على جمالياتها ومحاسنها، وقدرتها على استيعاب كافة

(١) ينظر الديوان ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٣. القصيدة الكاملة التي اخترنا منها تلك الأبيات الثلاثة هنا.
(٢) الديوان جـ ١ صـ ٢٥٣-٢٥٥.

العلوم والمصطلحات في كل زمان ومكان، وعلى مواكبة التقدم العلمي والحضاري في كل المجالات.

ومن تلك الصور الرائعة تصويره للغة العربية ببحر عميق ملئ بالدر، يحتاج إلى غواص ماهر يستطيع أن يستخرج ذلك الدر، وذلك في قوله:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

. ومنها تصويره القائم على التشخيص المثير والمؤثر للغة العربية، في شكواها، بلسانها، أنها تركت للبلى، حتى كادت محاسنها أن تبلى، برغم أن من أهلها وأصحابها من يمكنه أن يقدم الدواء الشافي لذلك البلى، ويبعث فيها الحياة، ثم يطلب من أهلها وأصحابها ألا يتركوها للفناء والضياع، حتى لا تحين وفاتها، ولا تجد من يستعملها وينطق بها، فتموت مماتا لا قيامة بعده.

إنه تشخيص بديع للغة العربية صوره حافظ في قوله على لسان اللغة العربية:

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عز الدواء أساتي

فلا تكلــونى للزمــان فــإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

...

فإما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي

وإمــا ممــات لا قيامــة بعــده ممات لعمري لم يقس بممــات

إنها تتوجه بالرجاء هنا إلى أهلها وأصحابها، أن يحافظوا عليها، ويتمسكوا بفصاحتها وقوتها، ويحرصوا على سلامتها، ومقاومة كل دعوة لهدمها والقضاء عليها، حتى تظل حية قوية سليمة.

ياله من تشخيص بديع جميل، أضفاه حافظ إبراهيم على اللغة العربية، وجعلها تبدو وكأنها إنسان حي يتكلم ويشكو وينصح ويوجه، في تلك الأبيات المختارة هنا، وفي غيرها من أبيات القصيدة.

ونكتفي بهذين النموذجين للتصوير الحي الجميل والمؤثر والمثير في شعر حافظ الاجتماعي، ونؤكد على أن مثلهما كثير في ذلك اللون من الشعر عنده.

٨- الموسيقية الجميلة المثيرة.

لا أعنى هنا الموسيقى الخارجية القائمة على الوزن والقافية، فهذه واضحة في شعره بشكل عام، وفي شعره الاجتماعي بشكل خاص؛ لأنه من أقطاب مدرسة المحافظين في شعرنا الحديث، الذين حافظوا على نمط الشعر العمودي، في وحدة الوزن والقافية في القصيدة الواحدة.

وإنما ما أعنيه بالموسيقية الجميلة المؤثرة هنا، ما يتمثل في الإيقاع الموسيقي الجميل، والنغم العذب المثير، المنبعثين عن وسائل وأدوات ومظاهر كثيرة تحققهما، وتضفي على الشعر جمالا وحيوية، وتكسبه قوة التأثير في المتلقين، بالنغمات الإيقاعية، والرنين الموسيقي المثير، والإيقاع النغمي المؤثر، الذي يجذب المتلقين، ويدفعهم الى التأثر بالشعر، والانفعال به.

وذلك الإيقاع الجميل والمؤثر، والنغم العذب المثير، اللذين أقصد إليهما هنا، يتحققان بوسائل وأدوات ومظاهر كثيرة، تضفي على الشعر جمالا فوق جماله، وحيوية فوق حيويته، وروعة فوق روعته، وتثير المتلقين، وتؤثر فيهم بشدة، وتمتعهم بالشعر، لاسيما إن كانت عفوية غير متكلفة، كما هي في شعر حافظ الاجتماعي، فأكسبته جمالاً، وأضفت عليه روعة وحيوية. ومنها -مثلا-: حروف المد، والحروف المضعفة، والتنوين، والألفاظ ذات الظلال والإيحاء، والتكرار الترنمي في الحروف والمفردات والجمل، واختيار مفردات معينة ذات دلالات

خاصة، والمشتقات بأنواعها ودلالاتها، والتناسب الدقيق بين الشكل والمضمون، والمحسنات البديعية العفوية ذات الإيقاع الصوتي، وغير ذلك.

ومن ذلك –مثلًا– أبيات له تواجهنا فيها حروف المد، التي ينفس بها حافظ عن همومه وأحزانه، ويطلق من خلالها زفرة حارة، وأنة حزينة، ويصور بها ألمه وحسرته على الأطفال البؤساء، وضرورة حمايتهم من التشرد، ومن مظاهر البؤس والحرمان.

وبتلك الحروف (الواو – الألف – الياء)، يحاول أن يثير في القلوب مشاعر الشفقة والرحمة، ويدفعها إلى الثأثر بحياة هؤلاء المشردين البؤساء، ومظاهر الحرمان والبؤس التي يعانونها.

ونعرف أن حروف المد تمنح الشاعر فرصة، للتعبير عما يريده، ومساحة صوتية ممتدة تثير نغما موقعا مؤثرا، وتمكنه من اخراج زفراته، والتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وانفعالاته الحزينة، وتصوير همومه النفسية المكبوتة، بتلك النغمة الممتدة، التي تساعد على إخراج ذلك كله، وترجمته بدقة ووضوح، وتمنح الشعر الذي وردت فيه قوة تأثير في المتلقين، وفي حملهم على الانفعال بما فيه، والتعاطف مع ما ينطوي عليه، والاستجابة لما أراده الشاعر.

يقول حافظ في تلك الأبيات(١) :

هـــــذا صـــــبي هــــائم ... تحــت الظـــلام هيـــام حـــائر
أبلــــى الشـــقاء جديـــــده ... وتقلمـــــت منــــه الأظـــــافر
فــــانظر إلــــى أســــماله ... لـــم يبـــق منهـــا مـــا يظـــاهر
هــــو لا يريـــــد فراقهـــــا ... خـــوف القـــوارس والهـــواجر
لكنهـــــا قــــــد فارقتــــــــــ ... ـــــه فــراق معــذور وعـــاذر

(١) ديوان حافظ جـ ١ صـ ٢٩٢، ٢٩٣.

إنـــــــي أعـــــــد ضـــــــلوعه مـــــن تحتهـــا والليـــل عـــــاكر
أبصـــــرت هيكـــــل عظمـــــه فـــــذكرت ســـــكان المقـــــابر
فكأنمـــــا هــــــو ميــــــت أحيـــاه عيســـى بعـــد عـــاذر
قـــد كـــان يهدمـــه النســـيم وكـــان تـــذروه الأعاصـــر
وتـــراه مـــن فـــرط الهـــزال تكـــاد تثقبـــه المـــواطر
عجبـــا أيغرســـه الطـــوى فـــي قلـــب حاضـــرة الحواضـــر
وتغولـــه البـــؤس وطـــرف رعايـــة الأطفـــال ســـاهر

وانظر إلى الإيقاع الموسيقي المثير والمؤثر، المنبعث عن التوافق النغمي بين (جدد وجددا)، و (محنة ومحنة)، و (مسترفدا ومستشردا) و (قيل وقيلا)، و (الصدى والمدى)، و (الغرب والغرب)، و (تقضى وقضاة). وعن التضاد النغمي بين (فأضحى لآمالنا منعشا، وأمسى لآلامنا مرقدا)، وبين (اليوم وغدا)، وبين (شرق والغرب).

وعن الحروف المشددة، التي تعبر عن الانفراجة، والتطلع إلى الأمل في الحرف الثاني من الحرف المشدد، بعد الكبت النفسي الشديد، والضيق الواضح، الذي يعبر عنه الحرف الأول من الحرف المشدد، فوق ما يوحي به ذلك من إيضاح في المعنى المراد، وترجمة دقيقة لمشاعر الشاعر وأحاسيسه وانفعالاته المختلفة وذلك في: (جدد، وجددا) وفى: (الندى)، وفي: (النفس)، وفى: (ولى)، وفي (ولت)، وفى: (الصدى)، وفي: (كحز)، وفى: (الضلال)، وفى: (الليالي)، وفى: (الضعيف).

إنها وسائل وأدوات موسيقية مثيرة، تمكن الشاعر من ترجمة مشاعره وأحاسيسه، وإخراج زفراته، والتنفيس عن حالاته النفسية المختلفة، والتعبير الدقيق عما يريده من وراء شعره.

ويتضح ذلك كله في قول حافظ إبراهيم(١) :

سمعنا حديثا كقطـــر النـــدى فجدد في الـــنفس مـــا جـــددا
فأضـــــحى لآمالنـــــا منعشـــــا وأمســـــى لآلامنـــــا مرقـــــدا
فدنياك يا شـــرق لا تجـــزعن إذا اليوم ولـــى فراقـــب غـــدا
فكم محنـــة أعقبـــت محنـــة وولت سراعا كرجع الصدى
فـــلا ييئســـنك قيـــل العـــداة وإن كان قيلا كحـــز المـــدى
أتودع فيـــك كنـــوز العلـــوم ويمشى لك الغـــرب مســـترفدا
وتبعث في أرضـــك الأنبيـــاء ويأتي لك الغرب مسترشـــدا
وتقضى عليك قضاة الضلال طـــوال الليـــالي بـــأن ترقـــدا
أتشفي بعهـــد ســـما بـــالعلوم فأضحي الضعيف بهـــا أيـــدا

ونماذج الايقاع المثير والمؤثر، والموسيقية العذبة الجميلة، كثيرة في شعر حافظ الاجتماعي، وكلها في ذلك الإطار الجميل المؤثر، ذي النغمة المثيرة، ولذلك نكتفي بذلك القدر من الشواهد هنا.

(١) السابق ص ٢٦١، ٢٦٢.

المبحث الثالث

آراء النقاد في شعر حافظ الاجتماعي

كان لكثيرين من النقاد المحدثين آراء في شعر حافظ بعامة، ومواقف كثيرة منه، ومن شعره الاجتماعي بشكل خاص، كما أبدوا في شعره الاجتماعي آراء كثيرة، فقد نوهوا به كثيراً في هذا الجانب، وأشادوا بدوره الاجتماعي، الذي أداه على أحسن ما يكون من خلال شعره، ورفعوه مكانا عليا بين أقرانه من الشعراء في الجانب الاجتماعي بشكل خاص، فلقبوه بشاعر الشعب، والشاعر الاجتماعي، لأنه أحس بوطأته، وتناول قضاياه ومشكلاته الاجتماعية، وعرض لمآسيه وبؤسه، وراح يخفف عنه، ويسري عنه بشعره، ووقف بجانب البؤساء والفقراء والمحرومين والأيتام من أبناء الشعب المصري، وكان قريبا من الطبقات الدنيا، يتألم لألمهم، ويأسى لحالهم، فأحبه الناس، وأحبه النقاد، وأقبلوا على شعره بينهم، يتلقفون ما يقوله، ويقبلون على الاستماع إليه، ويقبل النقاد على دراسته والتأمل فيه، ويبدون رأيهم في شعره بين الحين والآخر، وشعره الاجتماعي هنا بشكل خاص، يقرظون أحيانا كثيرة، ويقدحون أحيانا أخرى، خضوعا لطبيعة الذوق الأدبي الذي يتباين من ناقد لآخر، كما يتباين أحيانا عند الناقد الواحد، وخضوعاً لرؤيتهم في كيفية معالجته للمظاهر الاجتماعية المختلفة، ومكانته وشعره في مجال الجانب الاجتماعي؛ ولهذا تجد في آرائهم ومواقفهم هنا الثناء الكثير على حافظ وشعره الاجتماعي، كما نجد أحيانا بعض القدح والمؤاخذة عليه في شعره الاجتماعي.

وهنا نرصد آراء ومواقف بعض هؤلاء النقاد الذين درسوا الشعر الاجتماعي عند حافظ، ولهم عليه نقدات وتعليقات، ونذكر من هؤلاء هنا:

١- مصطفي صادق الرافعي.

عرض الأستاذ مصطفي صادق الرافعي رأيه في اجتماعيات حافظ في الجزء الثالث من كتابه: (وحي القلم)[١]، ونقتطف من حديثه في هذا الرأي بعض مقتطفات منه، تشير إلى موقفه من اجتماعيات حافظ ابراهيم.

يقول مصطفي صادق الرافعي: " ولقد كان -أي حافظ- يفخر بأنه الشاعر الاجتماعي، وهذا لقب ميزه به صديقنا الأستاذ محمد كرد على، أيام كان في مصر قديما، فتعلق به حافظ ورآه تعبيرا صحيحا لما في نفسه، وللمملكة التي اختص بها. قال لي يوما في سنة ١٩٠٣م، أنا لا أعد شاعرا إلا من كان ينظم في الاجتماعيات، فقلت له: ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة، إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد[٢] ".

ويقول أيضا: " فالشاعر الاجتماعي شاعر في حيز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه، وإذا كان الاجتماع كل شعره، فلا يسمى شعره فنا، إذا كان الفن إنسانيا وكان شاملا عاما، والمقاييس التي يطرد عليها الفن الأدبي لا تكون في الزمن ولا في الموضع، بل في النفس الإنسانية التي لا تخص بوقت ولا مكان، فإذا لم يكن الشعر إنسانيا عاما يولد كل جيل من الناس فيجده كأنما وضع له، وارتهن بأغراضه وحقائقه فهو شعر كالأخبار المحلية، وهذا وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفا من نظم مقالات الجرائد.

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء التي نحن منها في الإنسانية والطبيعية والجمال وحقائق الحياة والموت، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، فإذا مات اليوم ماتت الجريدة ثم تولد، ثم تموت[٣] " .

---

(١) وحي القلم. مصطفي صادق الرافعي جـ ٣ ص ٢٥٧ - ٢٧٨ - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - لبنان.
(٢) السابق ص ٢٥٨.
(٣) السابق ص ٢٥٨، ٢٥٩.

هنا يشير الرافعي إلى اعتداد حافظ ابراهيم بلقبه (الشاعر الاجتماعي)، حتى إن أطلقه عليه الأستاذ/ محمد كرد علي، مما تؤكد اهتمام حافظ في شعره بالقضايا والمشكلات الاجتماعية، ورصده لمظاهر اجتماعية مختلفة في شعره، من خلال معايشته للمجتمع، ومخالطته لأفراد ذلك المجتمع، ومتابعته للأحداث والمتغيرات الاجتماعية في عصره، ورصده بكل ما يموج به الوضع الاجتماعي؛ لأنه حتما كان يدرك أهمية تفاعل الشاعر مع قضايا مجتمعه، ومشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم، وفي همومهم وآلامهم وآمالهم، وفي كل المناسبات التي تحدث في مجتمعه، على اختلاف أنواعها، وعلى تنوع مردودها على أفراد المجتمع، ولهذا ليس غريبا أن يلقب حافظ بالشاعر الاجتماعي، وشاعر الشعب، لأنه كان قريبا من الشعب في شعره الاجتماعي.

وشعره الاجتماعي شعر حيوي رائع، يزخر بالجمال والروعة وكل وسائل الإمتاع والتشويق والإثارة والإقناع، وكان – ولا يزال– شديد التأثير في المتلقين، ويثيرهم بجماله وحيويته، لأن الموضوعات والقضايا والمشكلات والمظاهر الاجتماعية، التي تناولها في اجتماعياته، ليست مرهونة بوقتها، كأنها أشبه بمقالات الجرائد –على حد قول الرافعي– بل في مشكلات وأحداث وقضايا ومظاهر وموضوعات إنسانية عامة، تواجه المجتمع في كل عصر، وفي كل مكان، ولا يخلو منها مجتمع في عصر من العصور، وفي مكان من الأماكن، أو وطن من الأوطان، ولا أبالغ إذا قلت إننا نواجهها دائما في كل وقت، فالفقر والطفولة والاهتمام بالأيتام، وحفلات التخرج، وإنشاء المدارس والجامعات، والكوارث الطبيعية، وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية المختلفة، هي في حقيقتها مظاهر إنسانية عامة، تواجهها المجتمعات المختلفة في كل مكان وزمان.

وعلى هذا فحافظ ابراهيم شاعر اجتماعي إنساني، يصلح شعره الاجتماعي للإنشاد والاطلاع في كل زمان ومكان، وليس شاعراً اجتماعياً جرائدياً، يرتبط شعره الاجتماعي بلحظته التاريخية فقط.

وأظن أني بما عقبت به على رأى الرافعي هنا، قد رددت ما قد يبدو في رأيه من تحامل على حافظ ابراهيم، لا سيما في قوله: (ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة: إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد)، وما تحمله تلك المقولة من أن الموضوعات الاجتماعية، التي يتناولها حافظ موضوعات وقتية، كمقالات الجرائد، تزول بزوال زمنها وأثرها، وقد تضمن تعقيبي على كلام الرافعي هنا الرد على ذلك.

ويقول الرافعي: "على أن شاعرنا الاجتماعي وإن كان قد نفخ في روح الشعب أنفاسا إلهية وأحسن في وصف حوادثه وآلامه وعيوبه، وأبلغ البيان في كل ذلك، فإنه نزل في هذه المرتبة عن وضعه الصحيح، وكان في منزلته بمكان الشرطي في الطريق يقف للجرائم والحوادث على حين أن مقامه الاجتماعي من الشعب مقام المعلم في مدرسته يجلس للطباع والأخلاق"(١).

والحق إن حافظ إبراهيم في شعره الاجتماعي، -كما قال الرافعي- قد نفخ في روح الشعب أنفاسا إلهية، وأحسن في وصف حوادثه وآلامه وعيوبه وصفا رائعا، وصور مظاهر المجتمع ومشكلاته، وكثيرا مما ماج به المجتمع في عصره أحسن تصوير، وأبدع في هذا الجانب من شعره إبداعا رائعا، وسلط الضوء المنير والمؤثر والمثير على الجانب الاجتماعي في عصره، بمختلف مظاهره ومشاهده، وكل ما يموج به، مما أشرنا إليه في الجانب الموضوعي من هذا البحث.

وكأن حافظ -كما يتضح من قراءة شعره الاجتماعي، ومناسباته المختلفة- يهدف من وراء اجتماعياته إلى التخفيف من آلام الشعب، والتسرية عنه، وتحقيق

(١) السابق ص ٢٥٩، ٢٦٠.

التكافل الاجتماعي والتراحم بين أفراد المجتمع، ومعاونة المحتاجين والمصابين، إضافة إلى محاولته إصلاح ما يمكن إصلاحه من العيوب الاجتماعية، ووضع العلاج والحلول المنطقية للمشكلات والمساوئ الاجتماعية التي قد تحتاج إلى ذلك، والتنويه بالإيجابيات والمحاسن الاجتماعية، سواء في الأشخاص، أو المظاهر الاجتماعية المختلفة؛ ليلفت الأنظار اليها، ويجيب أفراد المجتمع فيها ، هادفا إلى تقليدهم لها، والتأثر بها، والإكثار منها، كما حاول في اجتماعياته أن يبعث الآمال في نفوس الشعب دائما.

وحافظ في ذلك كله لم يكن كما قال الرافعي، يرصد الأحداث والمساوئ والمظاهر والمشكلات الاجتماعية كشرطي؛ ليعاقب ويحاسب عليها، لكنه في حقيقة الأمر كان في اجتماعياته معلما وموجهاً وناصحا أمينا للشعب، ومصلحا اجتماعيا حريصا على سلامة مجتمعه وخلوه من العيوب والمثالب، ونقائه من كل المظاهر السلبية كما كان حريصا على تأكيد المحاسن والمحامد، وبعث الآمال في النفوس.

ويقول الرافعي: " وفن (الشعر الاجتماعي) الذي عرف به حافظ، لم يكن فنه من قبل، ولا كان هو قد تنبه له أو تحراه في طريقته، فلما جاءت إلى مصر الإمبراطورة (أوجيني) نظم قصيدته النونية التي يقول فيها:

فاعذرينا علـــى القصـــور كلانـــا غيرتـــه طـــوارئ الحـــدثان

ولقيته بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة، وكان بها مدلا معجبا شأنه في كل شعره، فانتقدت منها أشياء.... فكأنني أغضبته، فقال: إن الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر، قالوا لي إذا نظمت فانظم مثل هذا الشعر الاجتماعي. ثم كأنه تنبه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها، فقال: إن كل قصائد شوقي الآن من غزل ومدح، ولا أثر فيها لهذا الشعر، على أنه هو الشعر.

وتتابعت قصائده الاجتماعية، فلقيني بعدها مرة أخرى، فقال لي: إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر، وأردت أن أغيظه فقلت له: وما هي الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد.

فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين: أحد هؤلاء أو جميعهم أصل هذا المذهب الذي ذهب إليه حافظ، وهو كثيرا ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده من حديثه أو حديث غيره، فيبنى عليها أو يدخلها في شعره(١)".

هنا نلاحظ أيضا انتقاصا من شاعرية حافظ، وتحامل عليه في الجانب الاجتماعي من شعره، ويبدو أن الرافعي لم يكن مقدراً لشاعرية حافظ في هذا الجانب الاجتماعي؛ لأن حافظ إبراهيم كان شاعراً اجتماعيا من الطراز الأول، كما وضح من هذا البحث، ومن بحوث ودراسات أخرى سابقة كثيرة أشادت بحافظ في هذا المجال، كما أنه قد أبدع في اجتماعياته، وله فيها رؤى ونظرات خاصة، ومحاولات حثيثة لعلاج بعض المثالب والعيوب في مجتمعه، والتخفيف من وقع المصائب والأحداث في نفوس الشعب، وحث الأغنياء على مساعدة المحتاجين واليتامى، والمصابين، حتى إن أفاد هنا من آراء وأفكار ونظرات الإمام محمد عبده وزملائه في الإصلاح الاجتماعي الذين كانوا يحضرون مجلسه، فلا يضيره هذا، طالما أن ذلك مفيد في جانب الإصلاح الاجتماعي والمعالجة البناءة للعيوب والمثالب، وترسيخ الإيجابيات والمحامد في نفوس الشعب، التي حرص عليها حافظ في شعره الاجتماعي، فالشاعر أحيانا يكون مرآة لأفراد مجتمعه، ويعرض آراءهم ونظراتهم السديدة في شعره للإفادة منها، كما أن حافظ كان مؤهلا بقوة بهذا اللون من الشعر، ولديه استعداد خاص للخوض في المجال الاجتماعي في شعره، وتناول

(١) السابق ص ٢٧٥.

مظاهره وأحداثه ومشكلاته وقضاياه، تناولًا حسنا في شعره. وأتساءل هنا: هل إطلاق لقب الشاعر الاجتماعي. ولقب شاعر الشعب. عليه كان من فراغ؟!

أعتقد أن الإجابة واضحة الآن من خلال عرض رأى الرافعي ومناقشته هنا.

أضف إلى ذلك أن حافظ إبراهيم لم يكن شاعرا اجتماعيا فقط، أوقف شعره على الجانب الاجتماعي، كما يوحي به بعض كلام الرافعي في رأيه، وإنما له شعر كثير في مجالات أخرى وموضوعات أخرى، يزخر بها ديوانه، غير أنه أجاد في هذا الجانب الاجتماعي، وتفوق فيه، كما أجاد أيضا في مجالات شعره الأخرى، فالإنصاف والموضوعية يقتضيان هنا أن نشيد بحافظ إبراهيم في مجالات شعره المختلفة، ولا نقتصر فقط على الجانب الاجتماعي في شعره؛ لأن شعره غزير في مجالات موضوعية أخرى، والعودة إلى ديوانه الشعري تؤكل ذلك كله، وتدعم تلك الوجهة، وترد معنا على الرافعي في هذا الحكم الذي أصدره على حافظ ابراهيم في هذا الجانب.

٢- أحمد حسن الزيات.

رأى الأستاذ أحمد حسن الزيات – كغيره من النقاد– أن حافظ ابراهيم هو شاعر الشعب، لأنه أقترب منه، وعبر عن قضاياه ومشكلاته، وواساه في محنه ومعاناته، ووقف بجانبه يأخذ بيده إلى طريق التقدم والرقي، بشعره الاجتماعي، والأستاذ الزيات بذلك لا يخالف ما ذهب إليه كثير من النقاد في عصره، وبعد عصره كذلك، حين يرون ذلك أيضا في حافظ.

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: " ثم خلص –أي حافظ– للشعب، فلابس دهماءه، وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفي كامل فمزج شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد، ونظم أماني الشباب من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره[١] " .

(١) تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ص ٥٠٥.

وأنا أوافق الأستاذ الزيات في هذا الرأي؛ لأنه يعبر تعبيرا دقيقا عن طبيعة حافظ ابراهيم في شعره الاجتماعي، الذي كان واقعيا صادق العاطفة فيه، عبر عن واقع الشعب، وصور حياته أبلغ تصوير، وحاول بشعره أن يجد طريق الخلاص لكثير من الآلام والمعاناة التي أحس بها الشعب المصري.

ويؤكد الأستاذ الزيات على هذا الصدق العاطفي الذي تميز به حافظ في تصوير آلام الشعب وأمانيه، والذي تفرد به من دون أقرانه الشعراء، وتميز عليهم، وهو جانب أشرنا إليه سابقا عند الحديث عن الجانب الفني في اجتماعيات حافظ، وأشار إليه كثير من النقاد.

يقول الأستاذ الزيات: " صياغة حافظ هي موهبته الأولى ومزيته الظاهرة. وهو في ذلك ثاني الخمسة (البارودي وصبري وشوقي وحافظ ومطران) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر، وتجدد على صنعتهم بلاغة القصيد. ولعله انفرد عن هؤلاء جميعا بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه، وتفسيره لأماني شعبه، وتصويره لمساوئ عصره(١) ".

ويرى الأستاذ الزيات أن اجتماعيات حافظ –وغيرها من اتجاهات شعره– إنما هي –في الواقع– صدى لما يتردد في المجتمع من آراء واتجاهات حول القضايا المختلفة، فحين يريد أن ينظم في قضية من القضايا، أو مشكلة من المشكلات، فإنه يعمد إلى ما يتصل بها من آراء في واقع الناس، وفي المحافل العامة والخاصة، وفي الصحف، فيجمعها ويتدبرها ثم ينظم من خلالها قصيدته، ولهذا كان شعره – في الغالب– صدى لعصره، وصدى لآراء من يخالطهم من أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم.

يقول الأستاذ الزيات: " أما الروح والموضع –في شعر حافظ– فأصداء منبعثة من الماضي في فردياته، وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته. كان إذا تهيأ

(١) السابق ص ٥٠٦.

للشعر عمد إلى الآراء التي تختلج حينئذ في النفوس وتستفيض في المجامع، وتتردد في الصحف، فيجمعها في باله، ويديرها في خاطره، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ، ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ، وشيء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه(١)".

وأنا مع الأستاذ الزيات في هذا الرأي، وأوافقه عليه، لأن شعر حافظ الاجتماعي يؤكد ذلك، حيث كان صورة عامة لعصره في كل قضاياه، وصورة لما كان يسمعه ويشاهده في المجالس المختلفة، العامة والخاصة، وفي مقدمتها مجلس الأستاذ الإمام محمد عبده، على ما سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن رأى الأستاذ الرافعي.

٣- الأستاذ محمد سعيد الأفغاني.

جاء رأي الأستاذ محمد سعيد الأفغاني حول اجتماعيات حافظ في مقال له بعنوان: (حافظ الإنسان) في كتاب: (ذكرى الشاعرين)(٢).

ونقتطف من هذا الرأي مقتطفات هنا، تشير إلى مجمل رأيه الخاص في اجتماعيات حافظ، وموقفه الواضح منها ومن الشاعر الاجتماعي.

يقول الأستاذ محمد سعيد الأفغاني: " وتدور عين حافظ فيما حوله فيجد أمور أمته ملتوية كلها، دب فيها المرض من سنين طويلة، وهى لما تتماثل بعد، إن عليه أن ينبهها إلى أمراضها وأن يعجل في دعوة الأساة، ولكن فيم يبدأ؟ فتأخذه حيرة أينما نظر، أيبدأ بمصيبة نصف الأمة، وهي الفقر الذي حل بها، حين تدافع رجال عظاميون لإنهاض الحال ونعشها، فأساءوا:

أيها المصلحون ضاق بنا العيـــ ـــش ولم تحسنوا عليه القياما

(١) السابق ص ٥٠٦.

(٢) ذكرى الشاعرين. شاعر النيل وأمير الشعراء. جمع وترتيب: أحمد عبيد - ص ٧٥ - ٩٥ - الطبعة الأولى - المكتبة العربية - دمشق – سورية.

ولقد رأى الفقر حاجزا بين الناس والعلم، فعطف على دور الأيتام وجمعية رعاية الأطفال وهنا روائعه، وهنا ثوب الرحمة يقسمه على الأطفال اليتامى. أنظر قصيدته التي أهداها لجمعية رعاية الأطفال، وقد استهلها بقصة خلاصتها: أنه وجد فتاة هد منها السقام، مات أبوها وبعلها وهى حامل، فحملها إلى دار رعاية الأطفال، فشاهد من عنايتهم بها ما أنساها ألمها وألهاه عن حزنه، اقرأ القصيدة لترى أي عطف وأي حنان يتدفقان في كل أبياتها الرقيقة، فهو لا يأتي على سرد قصته التي مهد بها لتحريك النفوس حتى يعترف أن بمصر رجالا عرفتهم الإنسانية في عداد خدامها المخلصين، فيأبى إلا أن يثنى عليهم ويكبر فعلهم:

وإذا بأيد طاهرات عودت صنع الجميل تطوعت في الحال

جاءت تسابق في المبرة بعضها بعضا لوجه الله لا للمال[1]

هنا يشير الأستاذ الأفغاني إلى أن الوضع الاجتماعي العام، في عصر حافظ ابراهيم، بما فيه من سلبيات و مساوئ و مظاهر مختلفة، هو الذي دفعه إلى تناول ذلك الوضع بمظاهره المختلفة، ومحاولة معالجة سلبياته، وعلاج ما فيه من مساوئ ومفاسد، ومظاهر مختلفة، تحتاج إلى عرض وحلول لتفشيها في المجتمع آنذاك، فالوضع الاجتماعي العام سيئ وسلبي، تفشت فيه الأمراض والمساوئ والمفاسد، كالفقر، وكثرة الأيتام، والحيلولة بين الناس والعلم بسبب الفقر الشديد، والحاجة الماسة الملحة، وكذلك كثرة الأيتام، وانتشار دور رعايتهم، التي ترعاهم وتحميهم، وتقدم لهم كل ما يحتاجون إليه.

هذا الوضع الاجتماعي بسلبياته ومساوئه، ومحاسنه ومحامده، وتناول حافظ ابراهيم له، وإنسانيته الواضحة في ذلك التناول، كل ذلك جعله شاعرا اجتماعيا

(١) السابق ص ٨٥ - ٨٧.

إنسانيا، وارتقت مكانته في عالم الشعر بهذا الجانب الاجتماعي الواقعي الصادق في شعره.

ويقول الأستاذ الأفغاني: ((وأراد حافظ أن يؤصل هذه الرحمة، ويمكن لها في النفوس فذكر في قصيدة ثانية، أن رجلا سقط من القطار إلى الجسر إلى النهر، ثلاث مرات يقع بين مخالب الموت ثم ينتشله سابح من اليم فتأخذ الجموع وجمة لهذه الصدفة الرائعة:

أنجاه من القطار من الجسر   من النهر جل رب الأنام

ثم تبدد الوجوم فتاة أحسن إليها هذا الرجل وعجزت عن مكافأته فجزاه الله بدلا منها:

وإذا صيحة علت من فتاة   برزت من صفوف ذاك الزحام
وقفت موقف الخطيب ونادت   تلك عقبى رعاية الأيتام
دعوة البائس المعذب سور   يدفع الشر عن حياض الكرام
إن هذا الكريم قد صان عرضي   وحماني من عاديات السقام
عال طفلي وعالني وحباني   بكساء وبدرة وطعام[(١)]

ويقول الأفغاني: " ولا يفسر لنا هيام حافظ وولعه بهذه الرحمة التي تؤخذ بها كل نفس حساسة، كأنه قطع على نفسه عهد ألا يألوا البؤس والشقاء حربا ضراما، يرقق النفوس، ويضع أيدي الناس تقري مكامن التعس والألم في نفوس البشر، ويفظعها لهم ويكرههم بها حتى يجعل منهم جميعا أعوانا على شدائد الكون، وكأن عليه استئصالها من صدور الناس[(٢)] ".

هنا أيضا يؤكد الأستاذ الأفغاني، شاعرية حافظ إبراهيم الفذة والمتوقدة، في شعره الاجتماعي الإنساني، ومحاولته فيه تأصيل الرحمة، وغرسها في نفوس

---

(١) السابق ص ٨٧، ٨٨.
(٢) السابق ص ٨٨.

الجميع من أفراد المجتمع، على اختلاف فئاتهم، ويستدل على ذلك بقصيدة، تعكس هذا الجانب بوضوح في شعر حافظ، وتؤكد على أهمية مبدأ الرحمة والتراحم، حيث أنقذ الله ، سبحانه وتعالى، بقدره اللطيف رجلا من كارثة حلت به، ونجاه منها، بسبب عطفه على فتاة يتيمة، ورحمته بها، وإحسانه إليها، وكأن حافظ ابراهيم هنا يؤكد ويدلل على أهمية مبدأ الرحمة والإحسان والشفقة، لا سيما في التعامل مع الفقراء والأيتام، تحقيقًا لمبادئ الإسلام وتعاليمه وأحكامه في هذا الجانب الإنساني الاجتماعي.

والأستاذ الأفغاني بذلك يثني على حافظ، وعلى شعره الاجتماعي، الذي تجلت فيه الروح الإسلامية، والنزعة الإنسانية الصادقة، ولهذا ليس غريبا أن يعد شاعرا اجتماعيا إنسانيا.

ويؤكد الأستاذ الأفغاني ذلك فيشير إلى عناية حافظ بمبدأ الرحمة والتراحم في شعره الاجتماعي، من أجل القضاء على البؤس والشقاء، ومحاولته ترقيق النفوس، ووضع أيدي القادرين والأغنياء على مظاهر البؤس والحرمان والشقاء في المجتمع؛ ليدفعهم إلى رحمة البائسين المحرومين والأيتام والفقراء، ومد يد العون لهم، ومشاركتهم الإيجابية في القضاء على شدائد الكون والمحن والآلام، التي تواجه بعض البشر في المجتمع، ويعانون منها أشد المعاناة، وهم بذلك في حاجة ماسة إلى من يأخذ بيدهم، وينجيهم مما هم فيه من شقاء وبؤس وحرمان وفقر، وغير ذلك من السلبيات.

وحافظ بذلك كله، عند الأستاذ الأفغاني شاعر اجتماعي إنساني صادق، ومكانته الشعرية سامية بذلك.

٤- الأستاذ محمد كامل جمعة. (١)

جاء رأى الأستاذ محمد كامل جمعة حول اجتماعيات حافظ في كتابه: (حافظ ابراهيم ماله وما عليه)، وقد عرض لهذا الرأي بالتعقيب والمناقشة الدكتور فاروق الميهى في كتابه (حافظ ابراهيم في مرائي الناقدين).

وفيما يلي نقدم مقتطفات من رأى الأستاذ محمد كامل جمعة، وتعقيب الدكتور فاروق الميهي عليه.

يقول الدكتور فاروق الميهي:" ونجدنا قدا آخر يشيد بشعر حافظ الاجتماعي، حيث كتب فصلا كاملا عن هذا الشعر الاجتماعي، وعرض القضايا الاجتماعية التي تناولها الشاعر في شعره، وكان موفقا إلى حد بعيد على ما أظن. غير أنني لا أوافقه فيما يلي:

أ- ذكر الباحث (أن شعره الاجتماعي استغرق معظم شعره).

ونحن لا نوافقه على ذلك، فإن شعره الاجتماعي يحتل المركز الثالث بين أغراض شعره، طبقا لإحصائية القصائد.

ب- إن الباحث ردد المقولة التي وردت عن حافظ وهي:

(وكان يقول دائما: إن الشاعر الذي لا ينظم الاجتماعيات ليس عندي بشاعر).

ثم يقول معقبا: (ونستطيع أن نرجع هذا الضرب من الشعر إلى الإمام وزملائه من رجال الإصلاح، فقد كان الشاعر يقتبس منهم الأفكار فيبنى عليها أو يدخلها في شعره).

وقد سبق أن ناقشنا ذلك ونحن نتناول موقف الأستاذ مصطفي الرافعي من حافظ.

أما ما عدا ذلك فنحن معه فيما ذهب إليه".

(١) نقلا عن كتاب: حافظ ابراهيم في مراني الناقدين. د. فاروق الميهى ص ١٤٤، ١٤٥ بتصرف.

فالدكتور الميهى هنا يشير إلى أن مقولة حافظ إبراهيم: (إن الشاعر الذي لا ينظم الاجتماعيات ليس عندي بشاعر)، ليست مقولة معيبة، ولا تغض من مكانة الشاعر، ولا تعني أنه قصد منها -كما أشار الرافعي سابقا، ومحمد كامل جمعة هنا- إلى أن الشاعر ينبغي أن يكون اجتماعيا فقط، وإنما قالها حافظ ابراهيم عن إيمان عميق بهذا الفن الشعري، و باندفاع نحوه؛ حتى يكون بذلك قد حقق فناً شعرياً جديدا، لم يسبق إليه(١)، وأجاد فيه، وحقق لنفسه مكانة عالية في عالم الشعر بهذا الجانب الاجتماعي المهم في شعره، الذي نزع فيه منزعاً إنسانياً خالصاً.

والدكتور الميهى أيضا يشير إلى أن حافظ ابراهيم لم يكن في شعره الاجتماعي، مردداً فقط لآراء وأفكار الإمام محمد عبده وزملائه من رجال الاصلاح، ولم يكتف فقط باقتباس الأفكار والآراء الإصلاحية منهم، كما ذهب إلى ذلك الأستاذ محمد كامل جمعة، ومن قبله الأستاذ مصطفي صادق الرافعي.

وإنما يؤكد الدكتور الميهى هنا على أن حافظ ابراهيم قد خلق وتهيأت له الأسباب التي جعلته يتجه هذا الاتجاه، فكان مجدداً فيه، ومنفردا به بين شعراء جيله، وظروفه وبيئته أهلتاه لذلك(٢).

وقد قلت سابقا -عند عرض رأى الأستاذ الرافعي- إن إفادة حافظ من آراء وأفكار الإمام محمد عبده وزملائه في الإصلاح الاجتماعي، لا تضره، ولا تغض من شأنه، ولا من قيمة شعره الاجتماعي؛ لأن الشاعر متاح له أن يفيد من كل الآراء والأفكار الإصلاحية، التي تمكنه من معالجة كل الموضوعات الاجتماعية على اختلاف ألوانها، معالجة دقيقة صادقة، إلى جانب ما يطرحه هو من أفكار وآراء وتوجهات ونصائح في هذا المجال، فكلام الرافعي ومحمد كامل جمعة حول

(١) السابق ص ١٣٥.
(٢) السابق ص ١٣٥.

هذا الجانب في اجتماعيات حافظ، لا يؤثر في مكانته الشعرية، ولا في مكانة شعره الاجتماعي، ولا يقدح فيهما.

ويؤكد الدكتور الميهى ذلك فيشير إلى أن حافظ إبراهيم كان مؤهلا لأن يقول شعراً في هذا الاتجاه الاجتماعي وإذا كان الإمام محمد عبده قد أرشده إلى هذا الطريق، فهذا التوجيه وجد صدى عند الشاعر فاستجاب له؛ لأن المؤهلات قائمة، والاستعداد موجود، ولو لم يكن عنده استعداد نحو هذا الاتجاه والخوض فيه ما استطاع اقتحامه ولا الإجادة فيه، سواء أرشده الإمام أم غيره.

وإذا كان الرافعي ومحمد كامل جمعة قد ذهبا إلى أن الشاعر كثيرا ما كان يقتبس أفكار الإمام أو غيره، فهذا أمر لا يعيبه، فمجالس الإمام العلمية وأفكار هؤلاء الزعماء الذين خالطهم كانت رافداً من روافد ثقافته(١).

وعلى هذا -وكما قلت، وقال الدكتور الميهي- لا عيب على حافظ ابراهيم في ذلك، ولا يقدح ذلك في كونه شاعرا اجتماعيا إنسانيا متفردا ومميزا في هذا الاتجاه الاجتماعي الشعرى، ولا يقدح أيضا في كون شعره الاجتماعي شعرا إنسانيا صميما وصادقا.

٥- الدكتور شوقي ضيف.

والدكتور شوقي ضيف من بين النقاد الذين أشادوا بحافظ ابراهيم في مجال الشعر الاجتماعي، ورفع مكانته في هذا الاتجاه بين كثير من الشعراء، ورآه أفضل شاعر في عصره عبر عن قضايا مجتمعه، وصور بؤس الشعب وحرمانه، فقال: " فهو -أي حافظ- من جهة نشأ في طبقة وسطى ودعته ظروف الحياة إلى أن يحس آلام الشعب وما ينطوي فيها من بؤس وفقر وشقاء، وهو من جهة ثانية أخذ يختلط بالطبقة الممتازة من المصريين التي لم تكسب امتيازها عن الوراثة، وإنما كسبته بجهودها، وكانت هذه الطبقة التي نشأت في البيئة الشعبية، وتهيأ لها أن

(١) السابق ص ١٤٠.

تسمو بحياتها وأن تصبح من الطبقة الأرستقراطية تشعر بكل ما يشعر به الشعب من حزن وألم وتتمنى لو استطاعت أن تغير حياته في السياسة والاجتماع والثقافة.

ونشأة حافظ في الطبقة الأولى واختلاطه بالطبقة الثانية طبعا شعره بطوابع قوية، بحيث أصبح شاعرا مصريا تاما يصور النفس المصرية تصويرا دقيقا، وماذا تريد من تصوير الشعب؟ أما إن كنت تريد شكواه وحزنه وبؤسه وفقره فقيثارة حافظ تسمعك كل هذه الألحان الشجية، وأما إن كنت تريد ما يضطرب في قلوب زعمائه ومصلحيه من دعوات عقلية وروحية وسياسية ووطنية، فالقيثارة نفسها تتدفق عليها هذه الأنغام وكأنها تعتصرها اعتصارا(١) ".

ويؤكد الدكتور شوقي ضيف في موضع آخر على تفوق حافظ على أقرانه من الشعراء في هذا الجانب الاجتماعي، فيقول:

" وحافظ في هذا اللون من الشعر الاجتماعي سابق الشعراء العرب جميعا، فمن قبله لم تعرف العربية شاعرا اجتماعيا من طرازه. حقا نجد عند المتنبي وأبى العلاء بعض أبيات وأشعار تنحو هذا النحو، ولكنهما لا يقصدان بها كما قصد حافظ إلى غاية اجتماعية من إصلاح شعب وتقويمه وتحريك نفسه وإثارتها ضد معايبه ومساوئه. ومن أجل ذلك لقب –غير منازع ولا مدافع– بالشاعر الاجتماعي، لقبا انفرد به من دون شعراء عصره"(٢).

وقد انتهى الدكتور شوقي ضيف إلى هذا الرأي في حافظ واجتماعياته لأنه رآه أفضل الشعراء في تصوير علل الشعب ومعاناته والوقوع على مكامن الداء في المجتمع ومحاولة علاجها.

وفي ذلك يقول: عند حافظ " لون صارخ من الشعر الاجتماعي لم يسبق إليه، وهو فيه يحارب الفقر والجهل وعللنا الاجتماعية والأخلاقية المختلفة. وله في هذا

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ١٠٥، ١٠٦
(٢) فصول في الشعر ونقده ص ٣٥٧.

اللون شعر كثير يدعو فيه إلى البر بالفقراء وإنشاء الملاجئ لهم والجمعيات دعوة تفجر ينابيع الرحمة والشفقة في أشد القلوب قسوة، كما يدعو إلى النهوض بالتعليم وإنشاء المعاهد ودور العلم والدرس، وقد دعا دعوة حارة إلى إنشاء الجامعة القديمة، ولما فتحت أبوابها للطلاب هلل لها طويلا، كما هلل لمدرسة بنات أنشئت ببورسعيد، فنظم في طلب العون لها قصيدة رائعة، وهي التي يقول فيها:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

وقد تحول فيها إلى ما يشبه مصلحا اجتماعيا يريد أن يصلح النفوس المريضة من حوله، وكان أكبر من آذاه من أصحاب هذه النفوس، كما صور ذلك في قصيدته، الفقيه الذي يحلل ما حرم الله ابتغاء منفعة عاجلة، والطبيب الذي يأكل أموال المرضى بالباطل، ومهندس الري الذي يرتشي في عمله، والأديب المنافق الذي يقلب الباطل حقا. وكان لا يزال يصف هذه العلل وأمثالها ويرشد إلى علاجها والتخلص منها ومن آفاتها بروح الصادق المخلص الأمين(١) ". ويقول الدكتور شوقي ضيف عن ذلك أيضا في موضع آخر:

" فهو –أي حافظ– مرآة للجماعة المصرية ترى فيه نفسها وأهواءها وكل ما اضطربت فيه من وجوه إصلاح في الدين والسياسة والاجتماع، بل لعله كان يشعر بذلك أكثر مما كان يشعر به شوقي، فقد نشأ فردا من أفراد الشعب، فصور عواطفه تصويرا بارعا"(٢).

ويؤكد ذلك أيضا في موضع ثالث، حيث يرى أن عند حافظ " شعرا اجتماعيا كثيرا يصور فيه علل الشعب الاجتماعية وما تتجرعه طبقاته الدنيا صابرة من الفقر والبؤس، ويجلى حافظ في هذا الميدان، بحيث يصبح صوت الشعب الناطق باسمه في مطالبه، فكلما ابتغى حاجة بادر إلى طلبها، سواء من ذلك ما اتصل بدور العلم

(١) السابق ص ٣٥٧.
(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر من ٥١،٥٢.

أو بإنشاء الملاجئ والجمعيات الخيرية وقد هلل طويلا لإنشاء مدرسة بنات ببورسعيد قائلا:

من لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق علة ذلك الإخفــاق

الأم مدرســة إذا أعــددتها ... أعددت شعبا طيب الأعــراق

ولما فتحت الجامعة المصرية أبوابها نوه بذلك طويلا. وأهم من هذا الجانب عنده دعوته الحارة إلى الملاجئ والجمعيات الخيرية لعون الأطفال البؤساء، وكأن ما ذاقه من طعم البؤس وعاناه من شظف العيش جعله يشعر في أعماقه بالعطف على البؤساء التعساء من أبناء الأمة، وله في ذلك أشعار كثيرة مؤثرة يستحث فيها ذوى اليسار على أن يمدوا أيديهم بالمال لعون الأطفال المحرومين رجاء أن يقيموا لهم ملاجئ، تقدم لهم الغذاء والكساء وشيئا من المعرفة فقد يخرج من بينهم زعيم سياسي كبير مثل سعد زغلول الخطيب المفوه، أو مصلح ديني عظيم مثل محمد عبده، أو شاعر عبقري مثل شوقي، أو قائد محنك يطهر البلاد من رجس العدو والمستعمر وإثمه، فيقول:

أيهــا المثــري ألا تكفــل مــن ... بــات محرومــا يتيمًــا معســرا

أنــت مــا يــدريك لــو أنبتــه ... ربمــا أطلعــت بــدراً نيــراً

ربمــا أطلعــت ســعدا آخــراً ... يحكــم القــول ويرقــى المنبــرا

ربمــا أطلعــت منــه عبــده ... مــن حمــى الــدين وزان الأزهــرا

ربمــا أطلعــت منــه شــاعراً ... مثــل شــوقي نابهــا بــين الــورى

ربمــا أطلعــت منــه فارســا ... يــدخل الغيــل علــى أسـد الشــرى

وكم فتحت قصائد حافظ من ملاجئ، وكم جمعت من أموال. وكان الشعب يهلل استحسانا كلما قرا له قصيدة اجتماعية أو سياسية، إذ كان يجد في أشعاره وقودا جزلا لجذوة الحياة الكريمة التي يريد أن يحياها، وقودا يشعلها فلا تخمد أبدا[١])).

لهذا كله رأى الدكتور شوقي ضيف أن حافظا يفضل الشعراء جميعا بهذا الشعر الاجتماعي الصادق، الذي تناول فيه علل الأمة وأمراضها، على نحو لا نجده عند شاعر آخر، بل إنه حاول علاج تلك العلل قدر استطاعته، وكان شعره كالبلسم الذي ينتظره الشعب بين الحين والآخر، للخلاص من أمراضه، ولهذا فليس غريبا أن يطلق عليه : الشاعر الاجتماعي.

وقد أرجع الدكتور شوقي ضيف تفوق حافظ على أقرانه في الجانب الاجتماعي، وقدرته على الإحساس بآلام الشعب وبؤسه، والإلمام بعلله وأمراضه إلى عدة عوامل، وهي:

أ- أن حافظ ابراهيم لم يكن أرستقراطيا في نشأته مثل البارودي وشوقي مثلا، مما جعله يحس بآلام الطبقات الدنيا، أو سواد الشعب.

ب-نشأة حافظ وحياته التي غلب عليها البؤس والحرمان والشقاء، مما جعله قريباً من أصحاب تلك الحياة، الذين يتقلبون مثله في الحرمان والشقاء.

ج-تقلبه بين الطبقات الدنيا، والطبقة الوسطى التي وصلت إلى ما وصلت إليه بجهدها وعرقها لا بالوراثة.

وفي ذلك كله يقول الدكتور شوقي ضيف: " لم يتأخر –أي حافظ– عن عصره وروحه، بل ربما كان أكثر تفاعلا مع روح عصره وأمته، لأنه لم يكن أرستقراطى النشأة مثل البارودي وشوقي، فاندمج من أول الأمر في الشعب [٢]".

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ص ٢٠٩، ٢١٠.
(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٤٧.

ويقول في موضع آخر: " ومن المحقق أيضا أنه –أي حافظ– يتميز من البارودي ومن شوقي في أساليبه، فهو أكثر منهما وضوحا، وأكثر منهما استخداما للفصيح المألوف في لغتنا المصرية لسبب بسيط هو أنه ابن الشعب، لم ينشأ مثلهما في طبقة أرستقراطية منه، إنما نشأ في طبقة ديمقراطية، ولذلك كان أدنى إلى الشعب في لغته وفي روحه [١]".

ويقول: " كان يخالط بيئة الشعب العامة في غدوه ورواحه بحكم فقره وبؤسه. ومعني ذلك أنه كان مختلطا بطبقات الشعب المصري المختلفة، فانطبعت حياتها ومشاعرها جميعا في نفسه وأحس آلامها وآمالها[٢] ".

ويقول: " وكان حافظ ابراهيم من أسرة مصرية متوسطة، لم يخل عيشها من شظف وبؤس، وتعاونت ظروف مختلفة لكي يحس في أعماقه بؤس نفسه وبؤس أمته إزاء الاحتلال الإنجليزي الذي كان يخنق أنفاسها خنقا، وكانت قد ظهرت طبقة من المصلحين المصريين نادت بالإصلاح السياسي والديني والاجتماعي أمثال مصطفي كامل ومحمد عبده وقاسم أمين، فاختلط بها وأصبح الهاتف بخواطرها. وكان من أهم ما تمتاز به هذه الطبقة عمق أحاسيسها بآلام الشعب العربي في مصر وآماله وما يطمح إليه من مثل عليا في السياسة والدين والاجتماع. فانسكب ذلك كله في نفس حافظ ولم يلبث أن أصبح أقوى صوت شعري للشعب، يصرخ في وجه الإنجليز يريد أن يحطمهم حطما، ويصرخ في أمته كي تتسلح في معركتها مع المستعمر الغاشم بالخلق السليم والعلم القويم[٣] ".

ويقول: " وكان –أي حافظ– من أبناء الشعب، ولد في أسرة شعبية متواضعة لا تخلو حياتها من الشظف، وأدته الظروف إلى أن يتجرع البؤس في مطالع حياته، كما أدته إلى أن يختلط بأبناء الشعب المصري المصلحين من أمثال محمد عبده المصلح

(١) فصول في الشعر ونقده ص ٣٥٣.
(٢) السابق ص ٣٥٥.
(٣) السابق ص ٢٨٦.

الديني، وقاسم أمين محرر المرأة، واختلط بأبناء الشعب البؤساء في الطرقات والمقاهي، والتقى في حنايا نفسه البؤس المادي ببؤس شعبه إزاء الاحتلال الإنجليزي الغاشم، ولم يلبث أن أصبح صوتا ضخما لشعبه[١] ".

٦- الدكتور عبد الحميد سند الجندي.

ألف هذا الناقد كتابا خاصا عن حافظ ابراهيم، وحياته، وشعره، كشف فيه عن معالم نشأته وحياته، والعوامل المؤثرة في شاعريته، وفنون وموضوعات شعره المختلفة، وسماته المضمونية والفنية، وأشاد به وبشعره، حين يستحق الإشادة، وأشار إلى بعض مثالب شعره، وكل ذلك في نظرة ورؤية موضوعية ومنصفة، ومن خلال النماذج التطبيقية المحللة من شعر حافظ ابراهيم، وهو تحليل دقيق يكشف عن معالم شعره الموضوعية والمضمونية والفنية، وفى سياق ذلك كله تعليقات وآراء ونظرات في شعر حافظ الاجتماعي، ونقدات موضوعية له، تتضمن فى سياقها العوامل التي أثرت فيه، وجعلته شاعراً بشكل عام وشاعراً اجتماعياً بشكل خاص، وسهلت له التعامل مع أحداث ومظاهر المجتمع فى عهده، التي أمدته بالتجارب الأدبية الاجتماعية، وصاغ فيها كثيراً من قصائده الرائعة البديعة، التي أثارت النقاد والمتلقين في عهده وبعده، ولا تزال تثيرهم، وتؤثر فيهم حتى يومنا.

ونقتطف هنا بعض جزئيات وآراء للدكتور الجندي من كتابه البديع (حافظ ابراهيم شاعر النيل)، تكشف في مجملها عن مجمل رأيه في شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي.

فهو – مثلا – يشير إلى العوامل التي أثرت في حافظ، وجعلته شاعراً اجتماعياً من الطراز الأول، ودفعته إلى إبداع القصائد الرائعة في مجال الشعر الاجتماعي، فيقول : " تفتحت عينا الشاعر على مياه النيل الرقراقة ، حيث كان يقيم مع أسرته في حراقة أنيقة، كانت راسية في النيل بالقرب من قناطر ديروط، وفى

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ص ٢٠٦.

تلك الحقبة الشبابية من حياته، بدأ ينظم الشعر، فينجح حيناً، ويتعثر أحيانا أخرى، وكان ذا حافظة قوية فحفظ كثيراً من شعر السابقين ونوادرهم وفكاهاتهم، مما أثر في شعره وشاعريته، حيث قدمت له حصيلة ثقافية أدبية شعرية، هدته إلى أن يكون أحد الشعراء المحافظين الكبار.

وكان صوته الشعرى – فى مجال الشعر الاجتماعي – يعلو مطالبا بإنصاف المرأة والعناية بتثقيفها، ولعل حضوره مجلس قاسم أمين نصير المرأة الأكبر كان له أثر في ذلك.

والحقبة التي قضاها موظفا في دار الكتب ١٩١١ م – ١٩٣٢م كانت حقبة نضوج في شعره، وتطور في قريحته، وأبدع فيها كثيراً من قصائد شعره، لا سيما في الجانب الاجتماعي منه [١]" .

ذلك كله وغيره مما عايشه حافظ ابراهيم في الأوساط التي التقى برجالاتها، سواء الشعب، أو رجال الطبقة الوسطى أرباب التثقيف والتنوير، قد ساعده على أن يكون بارزاً ومجيداً في الشعر الاجتماعي، إلى جانب انفعاله بالمظاهر الاجتماعية المختلفة، والتعبير عنها في شعره الاجتماعي، ويؤكد الدكتور عبد الحميد سند الجندي ذلك بنماذج تطبيقية من شعره الاجتماعي.

ومنها ذلك النموذج من قصيدته في حريق (ميت غمر) في أول ما يو سنة ١٩٠٢م، التي صور فيها تلك الكارثة، وما نتح عنها من خسائر وأضرار، وما حدث لأهل (ميت غمر) بسببها من نكبات وخسائر، وما حل بهم من أحزان وآلام وهموم.

ومنها الأبيات الآتية، التي يندد فيها حافظ بسراة القوم، الذين يبسطون أيديهم بالأموال على ملذاتهم وفي أفراحهم، وهم غافلون عن مواطنيهم البائسين، الذين تكرثهم الخطوب ولا يجدون من يقيل عثراتهم:

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل. د. عبد الحميد سند الجندي ص ١٥-٤٧ بتصرف

قد شهدنا بالأمس في مصر عرسا ... ملأ العين والفؤاد ابتهارا
سال فيه النضار حتى حسبنا ... أن ذاك الفناء يجري نضارا
بات فيه المنعمون بليل ... أخجل الصبح حسنه فتوارى
يكتسون السرور طورا وطورا ... في يد الكأس يخلعون الوقارا
وسمعنا في ميت غمر صياحا ... ملأ البر ضجة والبحارا
جل من قسم الحظوظ فهذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا
رب ليل في الدهر قد ضم نحسا ... وسعودا وعسرة ويسارا

والعرس الذي يشير إليه الشاعر في بداية الأبيات هو عرس زواج الأمير حيدر رشدي فاضل بك من كريمة على فهمى باشا. وقد أقيم مهرجان عظيم بدار على فهمي باشا، مكث ثلاث ليال من ليلة الأربعاء ٣٠ أبريل سنة ١٩٠٢م إلى ليلة الجمعة ٢ مايو من السنة نفسها، بينما أهل ميت غمر في أهوال وويلات بسبب نار الحريق.

والحال التي صورها حافظ في تلك القصيدة قد صادفت اتفاقا في نفسه، فصور المكروبين أصدق تصوير لأنه أحس وقع البؤس طيلة حياته، فكان من السهل عليه أن يحس الألم في نفسه، كما أحسه أهل ميت غمر، ولذلك كانت تلك القصيدة ثورة عارمة لأنها صادرة من أعماق نفس تحس شقاء البائسين وآلام المرزوئين(١).

وينصف الدكتور عبد الحميد الجندي في نظرته ونقده لشعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، فإذا كان قد أشاد بقصيدة حافظ السابقة في حريق (ميت غمر)، فقد كشف عن مثالب حافظ في قصائد أخرى من شعره الاجتماعي، وبين مظاهر تلك المثالب ودواعيها، كما حدث منه في موقفه النقدي من قصيدة حافظ في زلزال (مسينا) سنة ١٩٠٨ م.

(١) انظر: ديوان حافظ ج ١ ص ٢٥٠-٢٥٢. حافظ ابراهيم شاعر النيل د. عبد الحميد سند الجندي ص ١١٧، ١١٨. بتصرف.

حيث علق الدكتور على تلك القصيدة، مبدياً في إطار تعليقه عليها بعض المثالب التي فيها، ومؤكداً لها بالأبيات الشعرية التي تضمنت تلك المثالب ومظاهرها وأسبابها.

فقال: " القصيدة يبدو فيها التصنع والتكلف بحيث إنك لو حذفت عنوانها، ولفظة (مسين)، التي وردت فيها وأردت أن تتبين غرضها من فحوى أبياتها ومعاريض لفظها لألفيت ذلك مطلبا عسيرا، حتى لقد حق لبعض الباحثين أن يسميها – دون تجن – (جغرافية البراكين). ولو أنشدتك هذين البيتين:

ليتها أمهلت فتقضي حقوقا من داع اللدات والجيران

لمحة يسعد الصديقان فيهـــا باجتماع ويلتقي العاشـــقان

ولم أقل لك إنهما من قصيدة في زلزال (مسينا) لما جرى ببالك أنه يعنى بلدا لأن ذلك بعيد عن المعقول، ولسبق إلى خاطرك أنه يذكر فتاة عجل بها قدر النوى.

ولو قرأت هذه الأبيات على غير معرفة بما يقصد الشاعر:

لا رعى الله ساكن القمم الشم ولا حاط ساكن القيعان

قد أغار على أكـــف براهـــا بارئ الكائنات للإتقـــان

كيف لم يرحما أناملها الغـــر ولم يرفقا بتلك البنـــان

(يريد النسور والحيتان) – أقول لو قرأت هذه الأبيات عرضا لاعتاص عليك أن تدرك أنه يصف زلزالا. وقد تقال في زلزال وقد تقال في حرب، وقد تقال في شيء غير هذا.

ولولا هذه الأبيات التي يصف فيها حافظ الكارثة وصفا ليس فيه إحساس الشاعر وعميق تأثره لما أدركت موضوع القصيدة والغرض الذي يقصده. وهذه هي الأبيات التي تتناول صميم الكارثة ولكن في غير حياة أو روح، ولا تعدو أن تكون شيئا أشبه بالقصص.

رب طفل قد ساخ في باطن الأر ض ينادى أمي أبـــى أدركـــاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـــ ـــر تعاني من حره ما تعـــاني
وأب ذاهل إلـــى النـــار يمشـــي مســـتميتا تمتـــد منـــه اليـــدان
باحثـــا عـــن بناتـــه وبنيـــه مسرع الخطو مستطير الجنـــان
تأكل النـــار منـــه لا هـــو نـــاج من لظاها ولا اللظى عنه واني
غصت الأرض أتخم البحر ممـــا طويـــاه مـــن هـــذه الأبـــدان
وشكا الحـــوت للنســـور شـــكاة رددتهـــا النســـور للحيتـــان
أسرفا في الجسوم نقـــرا ونهشـــا ثم باتا من كظـــة يشـــكوان[1]"

وقد أشاد الدكتور عبد الحميد سند الجندي أيضا بالدعابات الاجتماعية الساخرة، التي وردت في شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، وأورد منها نماذج، ونوه بها في كتابه، وأثنى على بديهة حافظ الحاضرة، وخاطره اللماح، وقدرته بدعاباته على انتزاع الابتسام من السامعين، لتأثرهم اللطيف بها [2].

هكذا كان الدكتور عبد الحميد سند الجندي من النقاد المنصفين في موقفهم النقدي من شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، الذين كشفوا بوضوح أوجه الجودة ومظاهر الحسن والجمال، وأوجه الرداءة ومظاهر القبح والسوء في ذلك الشعر عند حافظ.

٧- الدكتور محمد رجب البيومي.

أشرت في المبحث الأول إلى موضوع (الدعابات الاجتماعية الساخرة) وقدمت بعض نماذج من شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، تؤكد وجود ذلك الجانب الاجتماعي فيه، وتشير إلى تميز حافظ ابراهيم بالروح الفكهة، والدعابات الساخرة، سواء في حياته الخاصة، وتعاملاته مع الآخرين، أو في شعره.

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ١١٤، ١١٥.
(٢) انظر: حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ١٨٣ - ١٨٦ بتصرف.

وقد أشاد بعض النقاد بذلك الجانب في شخص حافظ ابراهيم، وفي شعره الاجتماعي، وظهر أثره في علاقته بالآخرين، من الأصدقاء والأدباء، وممن كان يجالسهم في الأوساط المختلفة.

وممن أشادوا بهذا الجانب في شخص حافظ وفي شعره الاجتماعي الأديب الكبير، والناقد الفذ، الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه (قطرات المداد).

حيث أشار فيه إلى ذلك الجانب الهام في شخص حافظ وفي شعره الاجتماعي، مستشهداً في ثنايا ذلك بمقتطفات من (المرآة) التي صور فيها البشرى صديقه حافظ ابراهيم في صورة ساخرة، وفي دعابة فكهة عذبة، في كتابه (في المرآة).

ويتضح رأى الدكتور محمد رجب البيومي في قوله عن حافظ: " كان خفيف الروح، عذب الحديث، دقيق الملاحظة، قوى الاحتمال، حتى تعود الناس أن يتلقفوا عنه كل نادر رائع من الملح والطرائف. مضى صيته الجهير في مضمار الأدب، تسير به الروح الرياضية إلى أبعد أشواطها، تراه يجلس لأصحابه بمرصد من التندر، فهو يعابثهم ويغاضبهم ويقطع عليهم تيار القول بلاذع من الفكاهة، أو ساخر من التندر، فلا يؤثر ذلك قليلا أو كثيرا في دعائم الود المتأصلة، أو يهي من وشائج الحب المتعانقة [1]" .

فالدكتور هنا يشير إلى جانب هام وواضح في شخصية حافظ ابراهيم، جعلته محبوبا في الأوساط التي يختلط بها، ويجالس أفرادها، وأثرت بشدة في شعره الاجتماعي، فقام على السخرية اللاذعة، والفكاهة العذبة، في بعض نماذجه، التي قدمنا بعضا منها في سياق البحث، كما جعلت لشعره الاجتماعي في ذلك الجانب أثراً واضحاً في نفوس من يخالطهم، ويجالسهم في الأوساط المختلفة، وكانت تلك

(١) قطرات المداد. د- محمد رجب البيومي ص ١٩ بتصرف.

المداعبات تلقى القبول ممن يداعبهم ويلاطفهم بفكاهاته الساخرة في حديثه معهم، أو في شعره.

وأشار الدكتور البيومي إلى رأى البشري في حافظ حول ذلك، ونقل جزيئة منه، تؤكد روح الدعابة والفكاهة في شخص حافظ، وفي شعره، والتي ظهر أثرها قوياً في شعره الاجتماعي، كما أشرنا في المبحث الأول.

وذلك كله في قول البشري عن حافظ: " خفيف الظل، عذب الروح، حاضر البديهة، رائع النكتة، بديع المحاضرة، إذا كُتب لك يوماً أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليتخيل إليك أنك في بستان تعطفت جداوله، وهتفت على أغصانه بلابله، وأشرق نرجسه، وتألق ورده، وتنفس فيه النسيم بسحرها روت، فأعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت [١]" .

والمقولتان تؤكدان جانباً هاماً وحيوياً في شخص حافظ، وفي شعره الاجتماعي، وما تضمنه في ثناياه من الدعابات الاجتماعية الساخرة، والصور الفكاهية المثيرة، التي كان يداعب بها أصحابه، ومجالسيه، وأشاد بها –غير الدكتور البيومي والبشري– معاصروه ومن جاءوا بعد عصره.

٨– الدكتور فاروق أحمد الميهي.

ناقد من النقاد الذين أشادوا بحافظ في اجتماعياته، ورآه رائد هذا الاتجاه في الشعر الحديث، كما رأى أنه أجاد فيه إجادة تامة، وذلك لتناوله قضايا الشعب وآلامه، وتصوير علله وأمراضه، هذا الناقد هو الدكتور فاروق أحمد الميهي، الذي نراه يفضل حافظا أيضا على أقرانه من الشعراء في مجال الشعر الاجتماعي.

وللدكتور فاروق الميهى أقوال كثيرة تعتد بحافظ في شعره الاجتماعي، وتفضله على غيره من الشعراء، وتراه الشاعر الاجتماعي القدير، الذي كان صوت الشعب، المعبر عن آلامه وآماله وطموحاته، المصور لعلله وأمراضه. ومن هذه الأقوال

(١) السابق ص ٢١ بتصرف.

قوله: " إن حافظ ابراهيم أجاد في اجتماعياته إجادة رائدة، وكان رائد هذا الفن العظيم[١] ".

فهذا النص يؤكد على اقتناع الناقد بريادة حافظ ابراهيم للاتجاه الاجتماعي في شعرنا الحديث، وأن هذه الريادة ليست ريادة في النظم والاهتمام بقضايا المجتمع فحسب ولكنها أيضا ريادة في الجودة الفنية، فحافظ –عند الناقد– قد نظم كثيرا في قضايا المجتمع، وأجاد أيضا في هذا النظم.

والحق إنها نظرة صائبة، وحكم سديد، لأن حافظا معدود بين شعراء المجتمع في الطبقة الأولى، وهو أيضا معدود ضمن الشعراء الكبار المجيدين في شعرنا الحديث، ومعدود أيضا على رأس المجيدين في الشعر الاجتماعي.

ويرى الناقد الدكتور فاروق الميهى أن ريادة حافظ للاتجاه الاجتماعي في الشعر الحديث، ترجع إلى ظروف نشأته، واختلاطه بطبقات الشعب المختلفة، وقربه من الشعب، وإحساسه بما يتقلب فيه المصريون من ضنك وبؤس، فيقول: " إن الناظر في سيرة حافظ الذاتية تلوح أمامه نشأته التي نشاها، حيث نلاحظ أنه لم ينشأ نشأة أرستقراطية ناعمة، ولم يسكن القصور، المحاطة بالبساتين، ولم يكن ميلاده بين أسرة واسعة الثراء، ولها منزلة وجاه، ولكنه ولد في أسرة متوسطة، فعلى الرغم من أن جده كان تركيا، وكان أمين الصرة، إلا أنه كان تركيا قانعا، فلم يسلك مسلك الأتراك من حب للمال، والإقامة في القصور، ولكنه عاش يسكن حي المغربلين في القاهرة، وهو حي شعبي، ومات ولم يترك لورثته مالا يعيشون منه إلا ناتج عملهم وما يحصلون عليه من مجهودهم... فإذا أضفنا هذا إلى الدم التركي الديمقراطي من جهة أمه –الذي كان يجري في عروقه– وذلك الدم المصري من جهة أبيه، لاتضح لنا أن حافظا كان عنده استعداد خلقي لأن يكون شعبيا.

(١) حافظ ابراهيم في مرائي الناقدين ص ١٤٥.

على أن حافظا –بعد ذلك– خالط أصدقاء له من الشعب حينما كان في طنطا، ولما انتقل إلى الجندبة وعاش في السودان فترة من الوقت ، خالط كثيرا من أبناء الشعب ومن إخوانه السودانيين، وكلهم بلا ريب من بيئات مختلفة، ولما أحيل إلى الاستيداع خالط علماء الأمة، ومفكريها، ولقد أفاد من هذه الطبقة خبرات كثيرة ومتنوعة، حيث وقف على أدواء الأمة، وعرف أمراضها، وفي الفترة نفسها اختلط ببعض الأغنياء والموسرين، كما اختلط بطبقات شعبية متفاوتة ولا شك أن حافظا قد نال كثيرا من الخبرات المختلفة، ووقف على كثير من الأمراض الاجتماعية التي تهدد المجتمع، وزيادة على ذلك كله عرف حقيقة الأغنياء وخبرهم.

كل هذه الظروف التي أحاطت به تعاونت، بل إنها أهلته لأن يخوض في مشاكل الشعب محاولا العلاج، لذلك انبرى يقتحم هذا الميدان، وينظم فيه معالجا حينا، وحاثا على الإصلاح حينا آخر، لذلك لقب بالشاعر الاجتماعي[١] ".

وفي مقولة أخرى يؤكد الناقد على تفرد حافظ من بين أقرانه بهذا التيار الاجتماعي، وأنه يتقدمهم جميعا فيه، مدفوعا إلى ذلك بالظروف والأوضاع الاجتماعية السابقة التي أحاطت به في نشأته وفي كل حياته.

يقول الناقد: " وربما يكون الشاعر قد نظر حوله، فوجد الشعراء يخوضون بحارا شتى بين الموروث من فنون الشعر، وبين الجديد منها، ولكنهم لم يطرقوا هذا الفن الشعرى فاتجه هو إليه عن إيمان ويقين، لينال قصب السبق فيه، وبذلك ينفرد عن غيره من الشعراء في هذا المجال.

ولعل مقولته: (أنا لا أعد شاعرا إلا من كان ينظم في الاجتماعيات).

لم تكن من فراغ، وإنما كانت صادرة منه عن إيمان عميق بهذا الفن الشعرى مدفوعا نحوه حتى يكون بذلك قد حقق فنا شعريا جديدا لم يسبق إليه[٢] ".

(١) السابق ص ١٣٣، ١٣٤.
(٢) السابق ص ١٣٥، ١٣٦.

والناقد يرى اجتماعيات حافظ تتميز بالناحية الإنسانية، حيث إنها قضايا إنسانية عامة، وليست قضايا وقتية وهذا يدل على إنسانية حافظ، وعمق إحساسه بالقضية التي يطرحها ويتناولها، ويؤكد الناقد ذلك بطرح بعض القضايا التي عرض لها حافظ في شعره الاجتماعي، ويدلل على أنها قضايا إنسانية عامة، ترتفع بمكانة حافظ درجات ودرجات في مجال الشعر الاجتماعي.

يقول الناقد: " وحينما ننظر إلى القضايا الاجتماعية التي تناولها الشاعر في شعره منذ أكثر من ستين عاما تقريبا، نجد معظمها ما زال قائما، وما زلنا ونحن نطالعها في شعر حافظ نحس بها لأنها ما زالت قائمة في مجتمعنا، وما تزال تحتاج إلى العلاج.

فمشكلة الفقر والطفولة والعناية بالأيتام كلها مشاكل ما زالت قائمة، بل ولربما نجد منها بعض المشاكل التي تعقد حلها، فهل اختفي الأطفال الفقراء من مصر بحيث صرنا لا نراهم يحتاجون إلى العون من الأغنياء والموسرين. وهل اختفي الفقر في مصر بحيث صرنا لا نسمع بأصوات الفقراء تهز أعماق المجتمع.

وهل الأطفال اليتامى الفقراء اختفوا من المجتمع بحيث تكون مشاكلهم قد زالت ولم يعودوا بحاجة إلى إقامة دور للأطفال وملاجئ للأيتام؟ إن مشكلة الفقراء وموقف الأغنياء منهم ستظل وستبقى، فهي قائمة في مصر وفي المجتمعات الأخرى منذ أقدم السنين، وما زالت قائمة إلى اليوم، وستظل قائمة غدا. وربما تتعقد كما تدل على ذلك الشواهد العامة في العالم المعاصر.

أما المشاكل الخاصة بالطفولة واليتامى فقد تخف حدتها، ولكنها ستبقى فهي لم تكن قضايا وقتية، وإنما هي قضايا اجتماعية تبقى ما زال المجتمع قائما...

ثم من الذي قال إن مشاكل الفقراء والمنكوبين ليست إنسانية؟

إن مشاركة المنكوبين والفقراء والعطف عليهم ناحية إنسانية، كما أنها تتصل بالإنسان وبالنفس الإنسانية أيضا وليست غريبة أو نافرة.

فالشاعر لم يكن يؤرخ لهذه المشكلات، ولكنه كان يصورها في شعره انطلاقا من إحساسه بها، فتبدو حية نابضة تبصرها الأبصار وتحس بها النفس، فتمد إليها الأيدي الرحيمة بالعون والعلاج(١) " .

كما يشير الدكتور الميهى أيضاً هنا إلى الطابع القصصي، أو عرض المشكلات والمظاهر الاجتماعية في إطار قصصي في بعض قصائد حافظ ابراهيم الاجتماعية مما يجعلها تتسم بالحيوية، وقوة التأثير في المتلقين، ويضفي عليها مسحة من الجمال والروعة، لكنه يأخذ عليه هنا –من باب الإنصاف والموضوعية– أن الإطار القصصي في تلك القصائد التي بنيت عليه، لم يكن ناضجاً، ولم يكن قائماً على كل السمات الفنية المطلوبة في الإطار القصصي.

وفي ذلك يقول الدكتور الميهي: " أحب أن أشير هنا إلى أن الشاعر وهو يتناول القضايا الاجتماعية كان يعرض بعضها في إطار قصصي، غير أن ذلك الإطار لم يكن ناضجا فنيا، حيث بدت القصة مهلهلة النسج. والأستاذ الأفغاني لم يشر إلى ذلك. ولذلك سأشير إلى قصيدته (رعاية الأطفال) كأنموذج فقط وأولها:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا بل فتاة بالعراء حيالي

هذه القصيدة عرضها الشاعر في إطار قصصي والحوار الذي وقع بداية بين الشاعر ونفسه حوار داخلي، ساقه لكي يجذب انتباه السامعين أو القارئين، وكأنما يقصد من ورائه إلى أن هذا الذي يراه أمر خطير، فعليهم أن ينتبهوا، غير أن الشاعر لم يتركهم إلى ظنونهم تهيم في كل واد بل سرعان ما فاجأهم بأن الذي يراه فتاة تحمل في أحشائها جنينا.

ومن هنا استطاع أن يسيطر سيطرة كاملة على القارئ أو السامع بحيث جعله يتساءل بينه وبين نفسه، ما حال تلك الفتاة التي رآها على هذه الحال؟ وما شأنه بها؟ وفي ذلك مهارة شعرية فائقة، ولكنه سرعان ما أماط اللثام عن حال تلك الفتاة،

(١) السابق ص ١٣٦-١٣٨.

فأدار حوارا حيا بينه وبينها، وأخذ يعرض لنا على لسان الفتاة الصواعق المهلكة التي لحقت بها أو نزلت عليها فأصابتها، وأدت بها إلى هذا المصير الذي يكاد يفضي بها إلى الموت، ويؤكد ذلك فيطلب منها النهوض لتسير معه، فلم تستطع فيحملها وكأنها لهزالها عود خلال.

والشاعر في هذا الجزء من النص يثير الأغنياء، ويحثهم لكى يمدوا يد العون ويؤدوا واجبهم الإنساني نحو هذه وأمثالها من المعوزين شفقة ورحمة بهم.

وينتقل بعد ذلك فيصور العاملين، ولم يقع بينه وبينهم أي حوار فكل الذي لاحظه سجله وصوره بريشته الشاعرية.

هذه القصة الشعرية التي عرضها لم تكن ناضجة نضوجا فنيا، فالشاعر من خلال حواره مع الفتاة لم يتوغل في أعماقها حتى يصل إلى ما بداخلها فيصوره، وهذا بلا شك لو فعله سيكون أقوى تأثيرا لدى المتلقي، غير أنه لم يفعل، فجاء الحوار سطحيا، كما أنه لم يكشف لنا من خلال الحوار القصير الذي وقع بينه وبينها عن نفسية الفتاة، وما تكنه نحو المجتمع، وكان ضروريا أن يفعل ذلك، غير أن الشاعر اعتمد في هذا الجزء من القصيدة أو من القصة الشعرية على الناحية الخطابية، فجاء تأثيره وقتيا دون أن يكون له صدى في الأعماق.

وفي الجزء الثاني من النص صور دار رعاية الأطفال والعاملين بها، وما يقدمونه للوافدين، ولم يستخدم في هذا الجزء أسلوب الحوار، وإنما صاغ الذي شاهده شعرا، ففقدت القصة في هذا الجزء الحيوية، ثم ختم القصيدة بالدعوة إلى التبرع لهذه الجمعية.

وفي هذا الجزء نجده وقد أصبح واعظا ناجحا، ومرشدا بارعا، ونلاحظ على القصيدة بصفة عامة أن الشاعر لو استخدم أسلوب الحوار بينه وبين الفتاة، وسير

أغوارها من خلاله، كما أنه لو فعل ذلك مع العاملين بالدار محاولا إبراز خدماتهم حتى يبرز ما تقدمه الدار من المساعدة لكل من يستحق لبرزت هذه القصة الشعرية في ثوب آخر أنيق، غير ذلك الثوب المهلهل الذي ترتديه، ولأدت وظيفتها وغايتها التي يهدف إليها على خير وجه[١] ".

ويحسن أن نختم موقف الدكتور فاروق الميهى بشكل خاص، وموقف النقاد بعامة من شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، بهذا الثناء الجميل من الدكتور فاروق الميهي على اجتماعيات حافظ، وأثره في تحقيق التكافل الاجتماعي، والتعاون بين أفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم، وتلك هي رسالة الشعر والشاعر، التي يسعى إلى تحقيقها الشاعر والناقد على السواء.

يقول الدكتور فاروق الميهي: " إن الشاعر – أي حافظ – لم يكن يرصد الحوادث ويتعقبها كالشرطي، ولكنه كان ينظر إلى هذه المشكلات الاجتماعية فيتناولها في شعره، يخفف عن أصحابها الآلام، ويدعو أهل الخير إلى المواساة والتعاون، وبذلك يخفف من وقع المصاب على أصحابه. لم يكن الشاعر راصدا معاقبا كالشرطي، ولكنه كان معالجا لقد كان في موقفه من هذه المشاكل كوزارة الشئون يمد يد العون.

نعم كان عونه بالكلمة، ولكنها كلمة طيبة تجد صداها في النفوس الخيرة فتهرع مقدمة العون للمنكوبين، فيخلق بذلك روح التكافل، بل إنه كان يجسدها بين المنكوبين وأبناء المجتمع.

فإذا كان المعلم يجلس في مدرسته للطباع والأخلاق، فإن الشاعر كان في شعره يهدف إلى المشاركة والتعاون بين أبناء المجتمع، وبذلك يسود الحب وينتشر

(١) السابق ص ١٤٢-١٤٤.

الاطمئنان فالدعوة إلى التعاون في الخير بين أبناء المجتمع، لا تنفصل عن الأخلاق بحال من الأحوال[1])).

٩- رأي الباحث.

هذا وقد رأيت أن أشير في نهاية الحديث عن آراء النقاد في شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي إلى الرأي الشخصي للباحث في شعره الاجتماعي، كباحث فيه، ودارس وناقد له.

وأشير هنا إلى أن شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، شعر حيوي مثير وجميل، وقوي التأثير في متلقيه، حيث تتوافر فيه سمات الشعر الاجتماعي، التي ترتفع بجودته وقيمته المضمونية والفنية، وترقى بمكانة صاحبه بين أقرانه من الشعراء بشكل عام، وفى مجال الشعر الاجتماعي بشكل خاص.

ومن خلال دراستي لشعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، في ذلك البحث المتواضع، أؤكد على أن حافظ ابراهيم يستحق فعلًا لقب (شاعر الشعب)و(الشاعر الاجتماعي)، فشعره الاجتماعي قوي وحيوي، وهو فيه صادق العاطفة، قوي الانفعال، شديد التأثر بواقعه الاجتماعي، وما فيه من مظاهر، ومن سلبيات وإيجابيات، ومن قضايا ومشكلات، وآمال وآلام، ومحاسن و مساوئ، وقد عبر حافظ في شعره الاجتماعي عن كثير منها بصدق ودقة وأمانة، وصور كثيراً منها في ذلك الجانب من شعره تصويراً حياً دقيقًا مؤثراً، يستقطب المتلقين، ويجذبهم إلى متابعة شعره الاجتماعي، ويؤثر فيهم بشدة، ويحملهم على الاستجابة لما يريده حافظ من وراء شعره الاجتماعي، وإجابة ما يدعو إليه فيه من أعمال البر، وإنشاء دور التعليم، ودور رعاية الأيتام، والتخلص من السلبيات، والالتزام بالإيجابيات، وغير ذلك مما دعا إليه حافظ ابراهيم في شعره الاجتماعي.

(١) السابق ص ١٣٨، ١٣٩.

ومن خلال دراستي لشعر حافظ ابراهيم الاجتماعي أؤكد أيضاً أنه يسمو كثيرا بشعره الاجتماعي، وترتفع مكانته، وتعلو منزلته لدى النقاد، ولدى المتلقين، ولدى الشعب المصري بعامة، في عهده وبعد عهده، بذلك الجانب الرائع من شعره، الذى صور فيه واقعه الاجتماعي، بكل مظاهره، في أروع صورة، وشارك بصدق وواقعية في محاولات إصلاح ذلك الواقع، والنهوض بالمجتمع في عصره، وفى محاولة القضاء على سلبياته ومساوئه، والعمل على الالتزام بالإيجابيات والدعوة إلى أعمال البر والخير، على اختلافها وتنوعها، وغير ذلك من مظاهر الواقع الاجتماعي في عهده.

ودعماً لذلك الرأي الخاص في شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، وتأكيداً لعلو منزلته الشعرية، وسمو مكانته الفنية، وجودة مضامينه وفنياته، أقدم هنا أيضاً رؤيتي الخاصة لبعض نماذج من شعره الاجتماعي، أؤكد بها ذلك الرأي، وأدعم بها نظرتي الخاصة إلى حافظ، وإلى شعره الاجتماعي الصادق والمؤثر والمثير، والجيد مضمونياً وفنيا، كما أؤكد بها إعجابي الشديد والواضح بشعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، وتقديري له.

ومن تلك النماذج الرائعة، المتصلة بمجال التعليم، قصيدته في الدفاع عن اللغة الفصحى وسيادتها، ففي الفترة التي طلب فيها حافظ إحالته للمعاش، وأجيب إلى طلبه، وهي فترة تمتد من سنة ١٩٠٣م إلى سنة ١٩١١م، في هذه الفترة " يحمل الاستعمار – وبعض المخدوعين في دعواه– على اللغة العربية ويخوض الشعراء معركة الدفاع عنها والنضال في سبيل سيادتها [١]".

وكان من بين هؤلاء الشعراء، بل وفي مقدمتهم حافظ ابراهيم الذي نظم قصيدة على لسان اللغة العربية، يدافع فيها عن الفصحى ويدعو إلى سيادتها، حيث هاله تلك العاصفة التي قامت تدعو إلى العامية ونبذ الفصحى.

(١)تطور الأدب الحديث في مصر - د. أحمد هيكل ص ١٣١.

فقد " تصادف في إبان هذه الفترة من حياته الفنية أن اكفهرت الأجواء الأدبية بحملة رهيبة على لغتنا الفصحى، وارتفع ضجيج ينادى بأنها لا تمثل البلاد العربية الناطقة بها، حتى تنقصم عرى الوحدة العربية ويتنابذ أهلها تنابذا لا يجتمعون بعده. واستشاط الجندي القديم غضبا للغة القرآن الكريم، واستل قلمه وطعن به دعوة القوم طعنة نجلاء بقصيدته الخالدة على لسان الفصحى:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي

ولم تقم للقوم بعد هذه الطعنة قائمة[١] " .

وقد نشرت هذه القصيدة في سنة ١٩٠٣م[٢].

وفيها يصور حال اللغة العربية، وموقف دعاء العامية منها، ويبين فضل الفصحى وسهولتها، وطواعيتها، حيث بإمكانها استيعاب كافة العلوم والمصطلحات. وإرضاء كل الأذواق والمستويات إن أراد أهلها ذلك.

وقد بدأ الشاعر القصيدة قائلا على لسان اللغة العربية:

إنني عدت إلى نفسي وفكرت فيما آل إليه أمري، فأسأت الظن بمقدرتي، وكدت أصدق ما رموني به من القصور، وناديت الناطقين بي أن ينصروني فلم أجد منهم سميعا، فادخرت حياتي عند الله. وأن الأعداء اتهموني بأني لا ألد على حين أني في ريعان شبابي. وليتني كنت كما قالوا فلا يحزنني قولهم. والشاعر يكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة العربية وجمودها، وتستمر اللغة العربية في الدفاع عن نفسها فتقول: إنني ولدت كثيرا من الألفاظ المجلوة الحسنة، ولكنني لم أجد لها نصيرا يستخدمها، فدفنت وهي حية، أي عفا عليها الزمن من عدم استعمالها، كما

(١) فصول في الشعر ونقده ص ٣٥٣.
(٢) ديوان حافظ ج ١ ص ٢٥٣-٢٥٥.

أننى لم أضق بما في كتاب الله من آيٍ، وعظات، وإنما وسعت ذلك لفظا وغاية، فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة، أو وضع أسماء ومصطلحات لمخترعات حديثة:

رجعت لنفسي فاتهمـت حصـاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حيـاتي
رموني بعقم في الشـباب وليتنـي ... عقمت فلم أجزع لقول عـداتي
ولدت ولمـا لـم أجـد لعرائسـي ... رجـالا وأكفـاء وأدت بنـاتي
وسعت كتـاب الله لفظـا وغايـة ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسـيق أسـماء لمخترعـات

وتمضى اللغة العربية في الحديث عن نفسها فتؤكد أنها بحر عميق ملئ بالدر، ولكن أين الغواص الماهر الذي يستطيع أن يستخرج ذلك الدر، ويستجليه، ولكنني تركت للبلى حتى كادت محاسني أن تبلى وفيكم الطبيب الذي يستطيع أن يقدم الدواء الناجح لذلك البلى. فلا تتركوني للزمان وللفناء رويدا رويدا، فقد تحين وفاتي يوما، ولا يعد أحد يستعملني، ولا يستطيع واحد منكم أن ينطقني:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسـني ... ومنكم وإن عـز الـدواء أسـاتي
فـلا تكلـونى للزمـان فـإنني ... أخاف علـيكم أن تحـين وفـاتي

وتذكر العربية أهلها بموقف الغرب من لغتهم والحفاظ عليها، فنالوا العز والمجد بسبب عز لغاتهم، وأتوا بالمعجزات تفننا من أجل الحفاظ على لغتهم، وأنتم تطربون لناعب الغرب الذي ينادى بوأدي وأنا في ربيع حياتي، وتجرون وراءه، ولو أنكم استنبأتم الغيب بزجر الطير، كما كان يفعل العرب، لعلمتم ما يجره دفني عليكم من السقوط والانحلال:

أرى لرجـال الغـرب عـزا ومنعـة ... وكـم عـز أقـوام بعـز لغـات
أتـوا أهلهـم بـالمعجزات تفننـا ... فيـا ليـتكم تـأتون بالكلمـات

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوما علمتم بما تحته من عثرة وشتات

ثم تذكر اللغة أهلها بماضيها السعيد في جزيرة العرب، وما كان فيه من رجال حافظوا على قوتها، وتمسكوا بفصاحتها، وحموها من البلي، وكم فاخرت العرب بتلك العظام التي بليت من أجلها في جزيرة العرب، بينما الشرق مطرق من شدة الحياء:

سقى الله في بطن الجزيرة أعظما يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق حياء بتلك الأعظم النخرات

وتتطرق اللغة العربية إلى حالها الآن أثناء تلك الحملة، فكم بالجرائد كل يوم من مزالق تدنيها من القبر، تريد بذلك الضعف الواضح في لغة الجرائد آنذاك، وتسمع للكتاب في مصر ضجة، فتتأكد أنها دعوة لنعيها، وهؤلاء قومي يهجرونني إلى لغة أخرى لم تتصل برواة، وإنما هي لغة سرت فيها لوثة الإفرنج، فلم تعد واضحة أو مفهومة، فهي أشبه بثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان، تشير بذلك إلى أن هذه اللغة المستعملة آنذاك لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغير كما هو الشأن في العربية، وإنما هي لغة مرقعة تضم أخلاطا شتي كادت تبتعد بها عن الفصحى:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجة فأعلم أن الصائحين نعاتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهم إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعي في مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات

وفي نهاية القصيدة، وبعد أن عرضت اللغة شكاتها وصورت حالها، وموقف أهلها منها، يتوجه إليهم بالرجاء أن يحافظوا عليها، ويتمسكوا بفصاحتها وقوتها، حتى تبعث من مرقدها، وتظل حية قوية سليمة، وإلا فإنه الموت الذي لا قيام ولا حياة بعده، لأنه سيقضى عليها سريعا إذا هجرها أهلها:

إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائي بعد بسط شكاتي

فإما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي

وإما ممات لا قيامة بعده ممات لعمري لم يقس بممات

إنها دعوة أمينة من شاعر الشرق حافظ ابراهيم إلى الحفاظ على اللغة الفصحى والتمسك بها، والحرص على قوتها وسلامتها، ومقاومة كل دعوة لهدمها والقضاء عليها، وقد آتت القصيدة ثمارها فخمدت العامية، ودخل أصحابها إلى جحورهم بعد أن وقف حافظ في وجههم وقوفا قويا بقصيدته الغراء.

ومن تلك النماذج الرائعة أيضاً قصيدته التي قالها قي (بركان مارتنيك) سنة ١٩٠٢[١]:

((والمارتنيك هي إحدى جزر الهند الغربية الفرنسية، وبها كثير من الفوهات البركانية. ويشير الشاعر في القصيدة إلى الثوران البركاني الذي حدث فيها، والذي لم يشهد العالم مثله في شدته وكثرة ضحاياه، وذلك في ٨ مايو سنة ١٩٠٢م[٢])).

وفي بداية تلك القصيدة يشير الشاعر إلى عدوان الناس بعضهم على بعض بالقتل من عهد آدم إلى يوم إنشاد القصيدة، وإلى يومنا هذا، فهو يخاطب الأرض بأن الناس ألبسوها الدماء فوق الدماء، وأروها الاعتداء على بعضهم تلو الاعتداء، فتسربلت بالدماء من عهد قابيل الذي قتل أخاه هابيل في أول جريمة قتل في تاريخ

(١) السابق ص ٢٥٢، ٢٥٣.
(٢) السابق ص ٢٥٢. هامش.

البشرية، ثم شهدت الأرض بعد ذلك مصرع الكثير من الأبرياء، فليس غريبا بعد ذلك أن تقسو الأرض على الناس بين الحين والآخر، وأن تكون مصدر الشقاء لهم، ولها العذر في ذلك.

وقد غلط الناس حين رأوا البركان، فقالوا هذا جبل النار، والواقع إن جبل النار لم يطغ حين قذف بالنيران في الهواء، ولكن الناس بفعالهم واعتدائهم على بعضهم قد أحرجوا صدر أمه، وهي الأرض، فأراهم البركان بعض ما أضمرت لهم من نار الضغن والحقد، وذلك أنهم أسخطوها فصابرتهم، وطاولتهم في الصبر، ثم لما نفد صبرها أقبلت عليهم بالجزاء:

ألبسوك الدماء فوق الدماء — وأروك العداء بعد العداء
فلبست النجيع من عهد قابيـ — ـل وشاهدت مصرع الأبرياء
فلك العذر إن قسوت وإن خنـ — ـت وإن كنت مصدرا للشقاء
غلط الناس ما طغى جبل النار — بإرسال نفثة في الهواء
أحرجوا صدر أمه فأراهم — بعض ما ضمرت من البرحاء
أسخطوها فصابرتهم زمانا — ثم أنحت عليهم بالجزاء

وقد أحسن حافظ ابراهيم حين أراد أن يذكر الناس في هذه القصيدة بأفعالهم وأخطائهم وعيوبهم، فصور لهم البركان الثائر على أنه غضب من الأرض عليهم، لعل في ذلك يكون التنبه، واليقظة، واندفاع الناس إلى تغيير حالهم، والالتزام بالسلام والمحبة فيما بينهم.

وانطلاقا من هذه النظرة راح حافظ يحذر الناس أيضا من سخط السماء، فإذا كان هذا البركان هو غضب الأرض، فكيف يكون غضب السماء وسخطها، وهي

مسرح المقادير، فعلى الناس أن يتقوا الأرض والسماء معا، وأن يتقوا النار في الثرى والفضاء:

أيها الناس إن يكن ذلك سخط الـــ أرض ماذا يكون سخط الســـماء
إن في علـــو مســـرحا للمقاديـــــ ـــر وفي الأرض مكمنا للقضاء
فـــاتقوا الأرض والســـماء ســـواء واتقوا النار في الثرى والفضـــاء

إنها موعظة بالغة لمن يتعظ، وعبرة لمن يعتبر، استمدها حافظ بحاسته الفنية، وذوقه الأدبي، وشاعريته المرهفة من هذه الكارثة الطبيعية، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

ومن أروع نماذج شعره الاجتماعي الصادق والمؤثر، قصيدة له في الحفل الذي أقامته الجمعية الخيرية الإسلامية لرعاية الأيتام في الأوبرا. أنشد حافظ ابراهيم قصيدة له على لسان صنيعة من صنائع الجمعية، كان يتيما بائسا فكفلته الجمعية حتى اكتمل عقلا وعلما، وذلك في ٢٨ مارس ١٩١٦م (١). وفي حضرة السلطان حسين كامل سلطان مصر.

وفي هذه القصيدة يصور حافظ ابراهيم – على لسان هذا الفتى الذي كان بائسا محروما وتكفلت الدار برعايته – يصور حاله التي كان عليها قبل دخول الدار، وما كان فيها من ذل واغتراب وفراغ اليدين من أي قوت يقتات به، وهو لا يزال صبيا في العاشرة من عمره، وقد رحل أهله جميعا عن الدنيا ولم يبق منهم سوى الذكرى، ولم يتركوا له سوى الجوع والحرمان اللذين أثرا فيه حتى أصبح في مشيته يترنح ترنح السكران، وافترسه الجوع افتراسا شديدا حتى خيل إليه أن الجوع حيوان يفترس له ظفر وناب من شدة افتراسه له، واستيلائه على قلبه وجوفه، وتمر عليه أيام وأيام وهو لا يصحب إلا الماء والخبز الجاف اليابس، الذي إذا حصل على كسرة منه يكون لعابه إدامها، هذا بالإضافة إلى ثيابه البالية، التي إذا أصابته الريح

(١) السابق ص ٣٠٢ – ٣٠٦.

حركتها، وذهبت بها، ففيها خروق كثيرة بسبب قدمها وعدم تغييرها، إضافة إلى مصائبه التي يعجز الحساب عن عدها، وظل على هذه الحال حتى جاءته النجدة وتلقفته يد الرحمة، إنها فعلا حياة بائسة مليئة بكل ألوان الحرمان والشقاء وتدعو إلى الشفقة والرحمة بأمثال هؤلاء، وقد وجدوا من حافظ نصيرا لهم وداعية من أجلهم، يتغلغل إلى قلوب الأثرياء يعطفها على هؤلاء، ويطلب إليهم المساهمة في أعمال البر والإحسان من أجلهم، لأنه كان –ولا يزال– في حياته البائسة واحدا منهم يحس بإحساسهم ويتألم بألمهم.

يقول حافظ على لسان هذا الفتى الذي كان يتيما:

قضيت عهد حداثتي ... ما بين ذل واغتراب
لم يغن عني بين مشـ ... ـرقها ومغربها اضطراب
صغرت يدى فحوى لها ... راسي وجوفي والوطاب
وانا ابن عشر ليس في ... طوقي مكافحة الصعاب
لم يبق من أهلي سوى ... ذكر تناساه الصحاب
أمشي يرنحني الأسى ... والبؤس ترنيح الشراب
فلكم ظللت على طوى ... يومي وبت على تبات
والجوع فراس له ... ظفر يصول به ونـاب
فكأنه في مهجتي ... نصل تغلغل للنصاب
ولكم صحبت الأبيضين ... فأبليا برد الشراب
فإذا ظفرت بكسرة ... فإدامها مني لعاب
وعلى طهر لو هفت ... ريح الشمال به لذاب
فخروقه ومصائبي ... في العد يخطئها الحساب

وظل الطفل على هذه الحال حتى تلقفته يد الإنقاذ والرحمة وتنفس له صبح رحيم، وغاب نجم النحس والعذاب، وهو موقن بأن كل شيء في الدنيا له نهاية،

وأنه لابد أن تنتهي حياته البائسة يوما، وقد جاءه هذا اليوم على يد فتية يقومون على رأس الجمعية الإسلامية كسبوا لأنفسهم خيرا احتسبوه عند الله بهذه الأعمال الخيرة التي يقومون بها، ورعايتهم للأيتام وإسراعهم إلى الحسنات والإحسان كأنهم في شدة إسراعهم خيل كرائم السالمة من الهجنة، فلا يترددون ولا يتوقفون يوما ما عن أعمال البر والإحسان وكم لهم من أياد على أسر كثيرة ضاق بها الحال فدقوا بابهم في جنح الليل، فلم يتضجروا ولم يوصدوا بابا في وجه يتيم أو أسرة مكلومة وإنما كانوا يفتحون ذراعيهم مع باب الجمعية بالترحاب والبشر، ليتعهدوا اليتيم والأسر المنكوبة بالرعاية المادية، والرعاية المعرفية، وفتحوا لهم المدارس التي ساهمت في هدايتهم وتلقينهم بالمعرفة وما أنا إلا واحد ممن أفادوا من تلكم المدارس، حيث تبينت الهدى، وقرأت فاتحة الكتاب، وصدفت عن الضلال، واهتديت إلى الصواب، حتى أصبحت إنساناً متزيناً بالفضائل لا بالثياب، بصيراً ذا فطنة مهتماً بالجوهر واللباب معرضا عن القشور:

ما زلت أوسع محنتي صبرا وأحتمل العذاب
حتى تنفس صبح إقـ ـبالي ونجم النحس غاب
ولكل سيف مصلت لحوادث الدنيا قراب
والعيش في إقباله شهد وفي الإقبال صاب
فتلقفتني فتية رحب الشمائل والجناب
مهدوا لأنفسهم بما صنعوه زلفى واحتساب
وعدوا إلى الحسنى كما تعدوا المطهمة العراب
كم أسرة ضاق الرجـ ـاء بها وأعياها الطلاب
دقوا عليها بابها والليل مسدول النقاب
وتعاهدوها مثلما يتعاهد النبت السحاب
وجمال صنع البر ألا يستشف له حجاب
فتحوا المدارس حسبة وتنظروا حسن المآب

فيهـــــا تبينـــــت الـــــهدى وقـــرأت فاتحـــــــة الكتـــــاب
وبهـــا صـــدفت عـــــن الضـــلا لـــــة واهتـــديت إلـــى الصـــواب
وغـــــدوت إنســـــانًا تجملـــــه الفضـــــــــائل لا الثيـــــاب
متبصـــــــــرا ذا فطنـــــــــة تنفـــي القشـــور عـــن اللبـــاب

وينتقل حافظ –على لسان الفتى أيضا– إلى الحديث عن الجمعية الخيرية التي قامت من أجل تخفيف مصاب المصابين، ويشير إلى بعض مؤسسيها، الذين لهم فضل إنشائها وقيامها، وفي مقدمتهم الأستاذ الإمام محمد عبده الذي كان أقوى مؤسسي الجمعية الخيرية وأعظم الداعين إلى إنشائها، وكان حريصا على تلبية كل من دعا إلى الإحسان، مشاركا في إغاثة كل ملهوف ومصاب، وحمل على عاتقه دعوة الكرام والأثرياء إلى المساهمة في أعمال البر في قيام تلك الجمعية ولسيرته الحسنة وحرصه على سلامة المجتمع ورعاية الأيتام من التشرد كانت دعوته تلقى القبول، وظل هذا دأبه يرعى تلك الجمعية حتى وافاه أجله، وممن لهم فضل أيضا على هذه الجمعية، ونوه حافظ بفضله حسن عاصم باشا، الذي ظل يتولاها برعايته، ويحميها من التوقف والاضطراب، حتى أدت رسالتها على أحسن وجه، وثبتت أركانها مع الزمان، ولا غرو في ذلك، فقد ساعد على ثباتها ودوام رعايتها للأيتام، اهتمام السلطان حسين كامل بها وكفالته لها والقائمين على أمرها، حيث كان يمنحها الآلاف من الأموال لتواصل عملها على أحسن وجه، وكان قدوة في هذا الصنيع للأخيار، فقد فتح لهم باب التسابق إلى الثواب بصنيعه، وحسن رعايته للجمعية وأياديه البيضاء عليها. وفي هذا الختام دعوة وتحفيز – على عادة حافظ في كل قصائده في هذا الميدان – للأثرياء إلى المساهمة في أعمال تلك الجمعية الخيرية، حتى لا تتوقف عن أداء رسالتها. يقول حافظ:

جمعيـــــــــة خيريـــــــــة قامـــــت لتخفيـــــف المصـــــاب

قد كان فيها عبده غوثا يلبي من أهاب
لم يدع مسماحا إلى إنعاشها إلا أجاب
ما غاب عنها مرة حتى تغيب في التراب
ولعاصم أثر بها باق وذكر مستطاب
قد كان يحميها كما تحمي مجاثمها العقاب
ثبتت وكان ثباتها يدعو إلى العجب العجاب
ثبتت لأن لها إلى أعتاب مولانا انتساب
لولا حسين لم تدم إلاكما دام الحباب
الله أدركها به بحرا موارده عذاب
يا واهب الآلاف كم طوقت بالمنن الرقاب
لك ساحة علوية ما أمها أمل وخاب
مهدت للأخيار ميدان السباق إلى الثواب

ويظل حافظ ابراهيم على الدرب نفسه، في كل مناسبة تتصل بالأيتام ينتهز الفرصة للدعوة إلى رعايتهم وكفالتهم، والمحافظة عليهم من التشرد وإنقاذهم من البؤس والحرمان، ولا يني عن دعوة الأثرياء إلى المساهمة في كل أعمال البر التي تقدم إلى هؤلاء، من إقامة الملاجئ، وإنشاء الجمعيات الخيرية وتقديم الغذاء والكساء والمعرفة لهم.

هكذا كان حافظ ابراهيم شاعراً اجتماعياً من طراز فريد، تعامل بصدق وواقعية مع واقعه الاجتماعي بكل مظاهره، تعاملًا إنسانياً وعاطفياً، ووقفت وراءه بوضوح مؤثرات، دفعته دفعاً إلى تناول الواقع الاجتماعي في عصره، والانفعال الصادق بكل مظاهره، والتفاعل القوي مع أحداثه، وما يموج به من قضايا ومشكلات ومحاسن ومساوئ، وتلك المؤثرات أيضاً قد دفعته إلى الشعر الاجتماعي الصادق، وهيأت له سبل الإجادة فيه، والبراعة في عناصره المضمونية والفنية،

وحركت عاطفته ومشاعره وأحاسيسه السامية الصادقة، وتتمثل تلك المؤثرات في المجتمع الذي عاش فيه، ومشكلاته وقضاياه ونقائصه، وأفراد ذلك المجتمع، ومثالبهم وعيوبهم، وكذلك محاسنهم ومحامدهم، وكذلك ما شهده عصره من فتن وتقلبات طائفية، ومن كوارث طبيعية، وأيضا وجدانه الاجتماعي الصادق، المتصل بالمجتمع وشؤونه، والمنفعل بقضاياه ومشكلاته، والمتفاعل بشدة مع مظاهره المختلفة، وكذلك عاطفته القوية الصادقة السامية تجاه مجتمعه، وأفراد ذلك المجتمع، وما يعانون في حياتهم.

كل ذلك – وغيره – جعله شاعراً اجتماعيًا كبيراً، مجيداً في شعره الاجتماعي الصادق.

الخاتمة

فيما مضى من صفحات البحث حاولت أن أميط اللثام عن جانب من أهم جوانب شعر حافظ ابراهيم، وهو جانب الشعر الاجتماعي، ذلك اللون الذي برع فيه حافظ، ويز فيه أقرانه، بل وتفوق فيه على نفسه، حتى عرف –نتيجة لذلك– بشاعر الشعب، والشاعر الاجتماعي لأنه كان قريبا من الشعب بشعره الاجتماعي شكلا ومضمونا، محاولاً القضاء على علله وأمراضه، والتخلص من سلبياته ومساوئه الاجتماعية، والتأكيد على المحاسن والإيجابيات في الجانب الاجتماعي والتنويه بها.

وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، وكان أثره قويا في الشعب وطبقاته المختلفة، فكانوا ينتظرون قصائده الاجتماعية وغيرها بشوق شديد؛ لأنها كانت بالنسبة لهم البلسم الذي يخفف من قسوة الحياة عليهم، ويسري عنهم ما يعانونه من آلام وأمراض، وما يتقلبون فيه من بؤس وشقاء.

وقد نجح حافظ –كما أثبت هذا البحث الذي بين أيدينا– إلى حد كبير في شعره الاجتماعي، وكان فيه كالمصلح الاجتماعي الذي يضع يده على الداء ويشخص الدواء، كما حاول فيه أن يكون مصلحاً اجتماعيا إلى حد كبير.

وللكشف عن اجتماعيات حافظ، وأثرها في إصلاح الوضع الاجتماعي القائم في عصره، وتحديد منزلته بين شعراء المجتمع، استلزم منى ذلك أن أقوم بدراسة موضوعية لاجتماعياته، بينت فيها القضايا والموضوعات والمشكلات الاجتماعية التي عرض لها في شعره الاجتماعي، ثم قمت بعد ذلك بإلقاء نظرات فنية ومضمونية في اجتماعياته لأجلي بعض سماتها، وأكشف عن الظواهر الفنية والمضمونية التي تميزها، كما كان لزاماً علي أن أحدد مكانة حافظ ومنزلته الفنية بين الشعراء في الشعر الاجتماعي وذلك من خلال مواقف النقاد منه، وآرائهم في اجتماعياته، هؤلاء الذين أجمعوا –أو كادوا– على أنه يتبوأ الذروة في الشعر الاجتماعي بين شعراء العصر الحديث، بل بين شعراء العرب جميعا.

وانتهيت من ذلك كله إلى ما يلي:

١-تعدد الموضوعات والقضايا الاجتماعية التي عرض لها حافظ في شعره، مما يدل على عمق إحساسه بعلل الشعب المصري وأمراضه على اختلاف أنواعها، وإحاطته بالوضع القائم في عصره، وقربه منه.

٢-حرص حافظ على أن يشارك بشعره في كل القضايا والمناسبات الاجتماعية، لأنه شاعر الشعب، وهو الشاعر الاجتماعي الذي أخذ على عاتقه الوقوف بجانب الشعب والأخذ بيده إلى طريق التقدم والرقي، وإصلاح المجتمع وتخليصه من مثالبه.

٣-اتساع وقوة الحركة النقدية – في عهد حافظ وبعد عهده– حول شعره الاجتماعي، واهتمام النقاد بدراسته، وبيان محاسنه ومساوئه، وتميز تلك الحركة النقدية بالإنصاف والموضوعية، في أحكامها على شعر حافظ الاجتماعي، وموقفها منه، كما تتميز بالدقة في تحليل شعره الاجتماعي، مضمونيا وفنيا.

٤-اهتمام الحركة النقدية حول شعر حافظ الاجتماعي، بجوانبه المختلفة، من حيث الموضوع، والمضمون، والعناصر الفنية، فقدمت رؤية نقدية متكاملة حول شعر حافظ الاجتماعي، وكشفت عن معالم وسمات الجوانب الثلاثة في شعره الاجتماعي، بما تنطوي عليه من عناصر فرعية أخرى، وبما يتراءى فيها من أوجه الجودة والحسن، وأوجه القصور والقبح.

٥-الحركة النقدية، التي قدمنا بعض معالمها في سياق البحث، من خلال عرض آراء بعض النقاد المحدثين في شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، وبما كشفت عنه من فنيات ذلك الشعر، ومدى براعة حافظ فيه، ودلائل تلك البراعة، وما توافر فيه من مظاهر الجودة والحسن.

تلك الحركة النقدية – بكل ذلك – وضعت حافظ ابراهيم في المكانة التي يستحقها بذلك الجانب من شعره، وجعلته شاعر الشعب، ولقبته بالشاعر الاجتماعي، مما يعكس مقدرته الشعرية، وإجادته في تصوير الجانب الاجتماعي، بكل مظاهره في شعره تصويراً مؤثراً ومثيراً، ودقته في التعبير عن آمال وتطلعات، وآلام وأحزان أفراد المجتمع في عهده.

٦- قدمت لنا الحركة النقدية حول شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي صورة دقيقة وواضحة لهذا الجانب من شعره، وكشفته بوضوح للمتلقين، مضمونياً وفنياً، من خلال آراء ورؤى ونظرات وأحكام نقدية دقيقة وواقعية، تتسم بالعمق والموضعية.

٧- الحركة النقدية حول شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، قدمت للمتلقين مائدة شهية وممتعة ولذيذة، تدفعهم إلى قراءة شعره الاجتماعي، بما حوته من آراء وأحكام ونظرات نقدية سديدة، وبما كشفته من محاسنه وأوجه الجودة فيه، وبما عبرت عنه من مصداقية حافظ في شعره الاجتماعي، وسمو وقوة عاطفته فيه، والاقتراب به من الشعب وواقعه، وواقعيته الواضحة في معالجة الواقع الاجتماعي في عهده بكل مظاهره، ومشاركته البناءة في المناسبات الاجتماعية المختلفة في عهده، بشعر صادق مؤثر.

٨- الحركة النقدية حول شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، حققت بوضوح الدور الصحيح المنوط بالنقد الأدبي، والمهام الضرورية المطلوبة من النقاد الأدباء، بما قدمه النقاد، الذين عرضنا لآرائهم في سياق البحث، من رؤى وأحكام ونظرات نقدية موضوعية ومنصفة، وواضحة بدلاً من الأحكام والآراء النقدية الفضفاضة، وبدلاً من الغموض والإبهام والتعمية أحياناً في الآراء والأحكام النقدية، التي تؤدى إلى انغلاق الأدب على المتلقين، وعدم وضوحه لهم، وبالتالي عدم فهمه، وعدم الإفادة منه.

ويدفعنا الإنصاف هنا إلى الإشادة بذلك الموقف لنقادنا المحدثين، والثناء على براعتهم ودقتهم، في تعاملهم الدقيق والواضح مع شعر حافظ ابراهيم الاجتماعي، وقد أثبتت الآراء والأحكام النقدية، التي عرضت في سياق البحث ذلك كله، وأكدته نظرياً وتطبيقياً.

وكل ما أرجوه – بعد ذلك – أن يكون البحث قد أكد ذلك كله، وغيره، وكشف، بوضوح، عن المنزلة العالية لحافظ ابراهيم في مجال الشعر الاجتماعي.

والله الموفق

المصادر والمراجع

١- الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت. الجامعة الليبية.
٢- الأدب العربي المعاصر في مصر – د. شوقي ضيف – دار المعارف– الطبعة الثانية عشرة.
٣- تاريخ الأدب العربي – أحمد حسن الزيات– دار نهضة مصر – القاهرة.
٤- تطور الأدب الحديث في مصر – د. أحمد هيكل. دار المعارف – الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.
٥- حافظ ابراهيم شاعر النيل – د. عبد الحميد سند الجندي – دار المعارف – الطبعة الثالثة.
٦- حافظ ابراهيم في مرائى الناقدين د. فاروق أحمد الميهي – مطبعة السعادة – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.
٧- دراسات في الشعر العربي المعاصر – د. شوقي ضيف– دار المعارف – الطبعة السابعة.
٨- ديوان حافظ ابراهيم ج ١ – تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الإبياري. دار العودة – بيروت – لبنان.
٩- ذكرى الشاعرين. شاعر النيل وأمير الشعراء – جمع وترتيب: أحمد عبيد – الطبعة الأولى – المكتبة العربية – دمشق – سورية.
١٠- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور – د. شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة الثانية.
١١- فصول في الشعر ونقده – د. شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة الثالثة.
١٢- الفكاهة والسخرية في أدب البشرى د. حبيب السيد أبو جمعة – دار كليوباترا للطباعة –دمياط – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

١٣- قطرات المداد – د. محمد رجب البيومي – كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة (٧٥) الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٤- المختارات السائرة من روائع الأدب العربي – أنيس المقدسي– دار العلم للملايين – بيروت.

١٥- وحي القلم جـ ٣ – مصطفي صادق الرافعي – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – لبنان.